الدكتور سالم احمد الحمداني

ملامح النزعة العاطفية في شعر ابراهيم ناجي

تمهيد في اسباب ظهور النزعة العاطفية :

شهد الشرق العربي في النصف الاول من هذا القرن تأثرا شديدا بالحركة الفكرية الناضجة التي تمخض عن القرن التاسع عشر في اوربا والذي تفجر بدوره عن تيارات ادبية ومذاهب فنية كانت الثمرة الطبيعية لما اسفرت عنه الحركة العلمية والفكرية قبل ذلك القرن .

وقد نتج عن اتصالنا بالغرب عن تململ واضح في اوضاعنا المختلفة ، وكان وليد الاتصال بتلك الحركة ان تأثر ادباؤنا وشعراؤنا بشتى المذاهب الادبية التي ظهرت في اوربا .

ولئن كان تأثرنا بتلك التيارات والمذاهب قد تأخر إلى بداية القرن العشرين فذلك يعود إلى ان امتنا لم تكن تمتلك الاستعداد النفسي او تتقبل تيارات ربما كانت غريبة عن بيئتنا الادبية والفكرية والاجتماعية . ولم تكن تربتنا مستعدة لان ترعى ذلك النبت الغريب قبل ان تتعرف على لونه وشكله .

ثم ان امتنا كانت تنشغل ايضاً في تحدي واقعها في صورته المتفسخة وكادت ان تفقد اصالتها لولا ان هيأ الله لها من اسباب الحياة ما جعلها تصمد امام قسوة الاحداث التي فرضها العثمانيون وغيرهم منذ زمن بعيد .

وقد حدث بعد ذلك ان استقبلت امتنا ريح التغيير الوافدة من اوربا بشيء من الرضا والقناعة بل لقد صار التغيير عند نفر من شبابنا لازمة من لوازم هذا القرن ، وطابعه العنيف المتغير . ووجدنا بعضهم يرى في احتفاظنا بصورتنا الادبية القديمة ، اصراراً لا موجب له في وقت تتحول فيه عجلة الحياة في اوربا إلى صورة اكثر تقدماً وأشد نضجاً .

على ان هذا الاتصال والاحتكاك بأوربا ، لم تكن السبل الوحيدة التي حفزتنا على التململ ، ان اوضاع امتنا في صراعها مع التخلف كانت اول حافز على اتخاذ موقف المبادرة الى تغيير الصورة الادبية والفكرية . ففي تأثير صراعها مع الاحتلال الاجنبي ، وامام مايلقاه شبابنا ورجالنا من عسف وظلم فرضته اصناف الحكم التقليدية ، ووسط رياح التغيير والتطوير التي عصفت

بالمجتمع الانساني كله ، وانتهت بالحرب العظمى الاولى ، وسط ذلك كله ، حيث تعرضت الانسانية لمهانة شديدة خلفتها تلك الحرب وويلاتها ، وما انتهت اليه من ضياع المثل الانسانية وهدر كرامتها ، ثم مااصيبت به امتنا نتيجة لذلك ، من احتلال اراضينا ، وتقيد حريتنا ، وما اصيبت به ثوراتنا من انتكاسات كثورة ١٩١٩ في مصر وثورة ١٩٢٠ في العراق ، ذلك كله أطاح بآمال الامه ، وانعكس اثره على الشعر والادب ، تياراً سلبياً يعكس نفوس الادباء ويجسد احلام الشعراء .

يضاف الى هذا كله ضياع الامال الشخصية المتمثلة بطموحات أولئك الادباء والشعراء نحو حياة افضل ، وهي طموحات خاصة ولكنها جزء من طموحات الامة ، كانت ذات تأثير سلبي على نفوس ادبائنا وشعرائنا بحيث القت بهم في احضان (مرض العصر) الذي صار ظاهرة متميزة من التيار الرومانتيكي في اوربا ، ثم مالبثت ريحه ان وصلت الينا بعد ان توافرت في محيطنا الاسباب التي ادت اليه .

وظاهرة (مرض العصر) هي « حالة نفسية ... تتولد من عجز الفرد عن التوفيق بين القدرة والامل اللذين يتعارضان . فيشقى الفرد بهذا التعارض ، ويظل يشقى شقاء لامفر منه الا بأحد أمرين : اما ان يغير الفرد من طبيعته ويتخلص من آماله ورغباته ، او تغير الاشياء من طبائعها بحيث تستجيب لتلك الآمال والرغبات . ولما كان كلا الامرين عسيراً ان لم يكن مستحيلا ، فان هذا الشقاء اصبح ضرورة يعبرون عنها بمرض العصر ويتخذون الشعر وسيلة لشكواهم ، والانين منه او التمرد عليه) . (١)

والحق ان شعراء مصر أحسوا منذ مطلع هذا القرن بعظم ما يمتلكون من قدرات ومواهب . وزاد احساسهم بها تأثرهم بالافكار الناضجة التي تلت الثورة الفرنسية . ثم ارهق نفوسهم انهم لم يستطيعوا ان يجسدوا طموحاتهم الذاتية في الحب والحرية وفي الحياة وهي طموحات لم تكن بسيطة على حين كانت ظروف مصر والامة العربية لاتتيح لهم تحقيق تلك الطموحات . فهز ذلك

(١) محمد مندور : الأدب ومذاهبه ، ص ٦٢ .

كيانهم وعظم امره في نفوسهم وصعب عليهم ان يتحملوا تلك الحياه بأرزائها وثقلها ، وضاقوا بالحياة التي لاتنقاد لرغباتهم فتأزمت نفوسهم والتهبت عواطفهم . واشتد تمردهم على المجتمع والحياة والكون . وحملوا المجتمع ماآل اليه أمرهم . وسعوا إلى تبديل يخفف عنهم اعباء الحياة ، وينسيهم واقعهم . فلجأوا إلى الطبيعة يشكون اليها امرهم ، ويخلعون عليها ما في انفسهم ، وما كان للطبيعة ان تستجيب لكل نداءاتهم ، فسموا بخيالهم إلى السماء يتأملون فيه اسراره وينشدون فيه تعطشهم إلى حقيقة الحياة والموت ويسعون إلى فهم الغاز ذلك البناء الواسع المعلق في الفضاء . فأستبدلوا بطبيعة الارض طبيعة السماء ، سائلين مرة ، ومستفهمين تارة ومستوضحين كرة ثالثة ، ولكنهم اخيرا عجزوا عن فهم اسرار الكون والسماء كما عجزوا من قبل عن فهم الغاز الطبيعة . فوقفوا في حيرة من امرهم ، وشاب نفوسهم وهن حينا واستسلام احيانا اخرى وعجز وهرب في كثير من الاحيان ومن هنا امعنوا في الشكوى والانين والبكاء والعويل واللهفة والحنين والتمرد والثورة . وعبروا عن ضيقهم بالحياة وشعورهم بالضياع وتشاؤمهم من الناس وتغنوا بالوحدة والعذاب واستسلموا للقضاء والقدر . وهذه المعاني تمثل قليلا من كثير حام حولها شعراء جماعة ابولو الذين يشغل شاعرنا مكان الصدارة بينهم .

وعلى الرغم مما يراه بعض الدارسين من انهم امتداد لجماعة الديوان الا ان سبب تمثلهم لهذا التيار لم يكن مبعثه اطلاعهم فقط على نماذج هؤلاء الشعراء بل مبعثه الظروف الصعبة التي اجتازتها مصر والامة العربية والتي اثرت في نفوسهم وهدت كيانهم . (١)

وهذا كله يمثل تياراً رومانتيكياً وصلت بوادره الينا في مطلع هذا القرن ، وتمثله شعراء المهجر وشعراء الديوان ، ومن بعدهم شعراء ابولو .

---

(١) انظر شوقي ضيف : الأدب العربي المعاصر في مصر ص ٧٣ ، ومحمود حامد شوكت : مقومات الشعر العربي الحديث ص ٢٤٥ .

وفي الوقت الذي اتخذ فيه شعراء الديوان في شرقنا العربي هذا التيار ميداناً لتجاربهم وعواطفهم ، كان شعراؤنا في المهجر الامريكي يتخذون منه مجالا لتجسيد غربتهم وشوقهم وحبهم الى وطنهم الحبيب . وتلك مصادفة رائعة وضعت اولئك الشعراء في الشرق العربي امام الواقع الادبي الذي فرض نفسه عليهم . وذلك باتخاذ تيار الرومانتيكية وسيلة من الوسائل التي حققت لادبنا الحديث سمة الحداثه والتجديد وهو (تيار وجداني عاطفي يبالغ في تصوير التجربة الذاتية والانطواء او الهروب . ووصف الهواجس النفسية ونبضات العاطفة في اسلوب دافق بالحرارة والحياة) . (١)

والرومانتيكية مذهب ادبي ظهر في فرنسا على انقاض المذهب الكلاسيكي منذ اواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر . وتطور تعريفه واتسعت مدلولاته . ولكنه عموماً يعني كل مايشمل (شبوب العاطفة والاستسلام للمشاعر والاضطراب النفسي والفردية والذاتية) (٢) وهو كمذهب ادبي عاد فيه (الادباء والشعراء الى نفوسهم ووجداناتهم يلوذون بتجاربهم العاطفية ويهتمون بمشاهد الجمال والطبيعة ويميلون الى الاصالة والابتكار والتجديد. متحررين في افكارهم واساليبهم منبعثين في آثارهم عن انفعال قوي وعواطف متقدة ومشاعر حية) . (٣)

وحيث ان هذا المذهب يجسد عواطف الشعراء ويتعمق مشاعرهم الذاتية فقد صار الشعر اقوى الوسائل التي يعبرون بواسطته عما تكنه نفوسهم المريضة وعواطفهم الرقيقة .

وقد جاء هذا المذهب ثورة على التقاليد الاجتماعية الكلاسيكية ، واحتجاجاً على المثل والمواصفات القائمة . وقد تغنى اصحابه بالحرية والحب وحلموا بالطبيعة وتغنوا بجمالها وهاموا حباً بجمال النفوس . وحلموا بعالم مثالي يحرر الفرد من قيود المجتمع . ولذلك كثرت مطالبهم وتعددت صيحاتهم . واشتد

(١) عبد العزيز الدسوقي : جماعة أبولو ص ٣٩٢ .
(٢) محمد غنيمي هلال : الرومانتيكية ص ٦ .
(٣) محمد عبد المنعم الخفاجي : دراسات في الأدب المقارن ١٤/٢ .

احتجاجهم على المجتمع وقيوده وعدوه المسؤول عما يصيب الانسان من ظلم وعسف ومن هنا اشتد برمهم بالحياة ، وكثر احتجاجهم على مايقيد الفرد واصيبوا بخيبة امل حين لم تلب مطاليبهم ، فأمعنوا بالشكوى والانين ولهجوا بذكر الطبيعة ولجأوا اليها يستوحونها مافي انفسهم ، وبكوا من اجل الحب ، وعبروا عن الاسى والالم واللهفة والضياع .

واذا عرفنا ناجي شخصية رقيقة نشأت في ظل النعمة ، وتربت في احضان الدلال واستندت على اهتمام الاب ورعاية الام ، وعرفنا فيه انسانيته . ثم عرفنا فشله في اكبر آماله وطموحاته — وهو حبه — وعرفنا ايضاً ان هذا الفشل قد لازم الكثرة الكاثرة من شعراء الرومانتيكية بسبب ماتخيلوه من طموحات تفوق قدراتهم ، وما يمتلكون من وسائل لتحقيقها ... اذا عرفنا ذلك كله توصلنا الى روح ناجي الرومانتيكية ، وتأكد لنا تصوره الحالم وعرفنا — بعد تعثر حبه — لماذا اكثر من الشكوى والانين والبكاء والعويل والتمرد والاستسلام

ولذلك فان هذه الرومانتيكية الغنائية تتمثل في شخص ناجي وشعره اكثر مما تتمثل لدى اي شاعر من شعراء جيله ومذهبه الشعري .

وبعد فما صورة هذه النزعة العاطفية التي تمكنت من نفس ناجي وما العوامل التي ادت اليها ؟ ثم ماهي ملامحها في شعره ؟ واخيراً ما مدى اصالتها في نفسه وصدق انعكاسها في هذا الشعر ؟

هذه مجموعة تساؤلات تتشابك ملامحها بعد ان تستمد جذورها من النزعة العاطفية التي انتهى اليها تمهيدنا ، ثم تلتقي بعد ان يتم انعطافها جميعاً في محيط شعر ناجي الذي تتلاطم امواجه بفعل ذلك التيار الذي جعل من شعره كما يرى محمد مندور (قصيدة غرام) (١) ومن صاحبة كما يرى احمد الصاوي محمد (قصيدة واحدة وقصيدة حب) (٢) ومن صاحبه كما يرى ابو شادي (شاعر اللهفة) . (٣)

---

(١) انظر محمد مندور : الشعر المصري بعد شوقي ص ٥٧ .

(٢) و (٣) انظر محمد المعتصم بالله انظر فاجي شاعر الوجدان الذاتي ص ٣٢ .

والمقصود بهذه النزعة عند ناجي كل مشاعر الحب وتباريح الهوى التي اخذت من نفسه مأخذا شديدا وتأصلت في مشاعره تأصلا عميقاً . وكان لها في حياته تأثير واضح وفي شعره انعكاس متميز .

وحيث ان هذه النزعة عند ناجي تقوم اولا واخرا على حب تعثر وذوى وان صورة التعبير عن ذلك الحب قد اتسمت بالعفة والطهارة إلى ابعد الحدود وان كل قصائده تقريبا قد نأت عما يشوهها من لذائذ الحب المادى المحسوس لذلك نجدها تقترب اقتراباً شديدا من حب العذريين الذي مثل شعرهم في الحب اروع ظاهرة لصدق العواطف ونبلها ، وحيث ان اهم ما يتميز به شعر ناجي هو صدق العاطفة — كما سنرى — لذلك فان شعر هذا الشاعر في تياره الوجداني يمكن ان يلتقي مع غزل شعرائنا العذريين وعندئذ تتحقق الاصالة التي تربطه بتراثنا العربي الخالد .

فما صورة هذا الحب العذرى اذن وكيف تتحقق العلاقة بينه وبين حب ناجي ؟ « الحب العذرى عاطفة قوية مشبوبة يهيم فيها المحب بحبيبته ويرجو الحظوة بوصالها ولكن تتضاءل النظرة إلى المتع الحسية ، اذ يطغى عليها حرص المحب على استدامة العاطفة في ذاتها وعلى اعتزازه بها مع التضحية في سبيل الابقاء عليها بما يستطيع بذله من جهد وآلام ، ووسيلة السمو بهذه العاطفة على هذا النحو هو الحرمان . (١)

ولا شك ان حب ناجي يمتلك كثيرا من هذة الابعاد إلى ابعد الحدود ، فعاطفته في حبه قوية مشبوبة وقد هام الرجل بحبيبته هياماً شديدا لازمه حتى موته وقد بذل في سبيله من جهد وألم ما نغص عليه كل سني حياته وساد ذلك كله بكاء وأنين وشكوى ولوعة وحرمان . وقد سما بعاطفته تلك على نحو ما نجد عند العذريين وهذا لا يجعلنا نضع شاعرنا في عداد الشعراء العذريين ولا يمكن ان يتم له مثل ذلك اذا اخذنا بنظر الاعتبار فوارق الزمن والبيئة والظروف والبعد

(١) محمد غنيمي هلال : الحياة العاطفية بين العذريين والصوفيين ، ص ١٣ .

الحضارى .لكن الذي نقصده ان الحب — حتى هذاالعصر الذي تغلفه حياتنا المادية والحضارية — لم يفقد صورته النقية الصافية وابعاده الروحية عند نفر من الناس يمتلكون من العواطف ونبلها ما لايمتلكه غيرهم — وكان ناجي واحدا من هؤلاء ويشهد عليه شعره بدواوينه الثلاثة : (ماوراء الغمام) و (ليالي القاهرة) و (الطائر الجريح) وفي كل قصائد هذه الدواوين . — الا قصائد قليلة — غناء عاطفي يلهج فيه باسمى ما يحمله العاشق من حب صاف وعفيف .

من خلال هذا الاستعراض الموجز الذي مهد لنا اسبابه الوقوف على طبيعة هذا التيار والعوامل التي ادت اليه نستطيع ان ننفذ إلى العوامل الخاصة التي دفعت ابراهيم ناجي إلى تمثله .

العوامل والاسباب :

قلنا في تمهيدنا : ان النزعة العاطفية وجه من وجوه ذلك التيار الرومانسي الذي وصلت بوادره الينا من الغرب . فأثر فينا وسط عوامل مهدت له وشجعت عليه ثم احتضنته وتبنته .

واذا كانت بوادره ومبادئه قد ظهرت لدى شعراء الديوان وشعراء المهجر الا ان ابعاده عمقاً واتساعاً قد تجسدت بقوة عند شعراء أبولو وكل ما تحت ايدينا من دواوين هذه الجماعة يؤكد ان رائد هذا التيار الذاتي العاطفي هو ابراهيم ناجي دون منازع ، ومن هنا لم يختلف الدارسون — فيما نرى — في أنه (رائد هذه النزعة في جماعة ابولو ، فشعره كله — الا بعض قصائد قليلة — غناء عاطفي حزين كله شجن وألم والتياع . . وناجي روح عاشق متعطش ..... وتجاربه العاطفية كلها دموع وألم . من هذا الفشل الذي كان يتربص بحبه . فهو يبكي مصرع حبه دائماً . ويعيش على الذكريات وكلها ذكريات كئيبة معتمة لاتلوح فيها بارقة امل . ولا نلمح فيها اثرا

للحظة من لحظات الصفو ، وقد استغرقه هذا الوجدان الخالص استغراقاً كبيرا فراح يصوره ويبالغ في تصويره (١)

ومهما يكن من احكام دارسيه حول ريادته في ابولو لهذه النزعة ، فان الذي يهمنا ان نعرف ، ماالذي هيأ لهذا الرجل ان يعيش للبكاء وللألم ، وان يذوق مرارة الحرمان ، فلا يهدأ له بال ، ولا يغمض له جفن وانما هو يسرح الطرف في هذا العالم الذي يغلفه سواد ، وتغطيه عتمة ما تلبث ان تنطبع في نفس شاعرنا وتلجئه في كثير من الاحيان إلى ارتياد الملاهي والى ادمان الخمرة لعل ذلك ان يسرى عنه الغم او يخفف عنه الالم .

ومن حسن حظنا وحظ الشاعر ايضاً ، ان الذين ارخوا لحياته ، وتحدثوا عن طبيعته ومزاجه كانوا اقرب المقربين اليه ، وانهم — فيما نرى — قد انصفوه — ا ، سلبا وان ايجابا — فأسباب عديدة — فيما يبدو — قد تلاءمت على خلق هذه الشخصية الغريبة في طبعها وفي حبها ويرى احمد هيكل ..(بان طبيعة ناجي وظروف نشأته وحياته قد ساعدت جميعاً على هذا الاتجاه ، فطبيعته كانت طبيعة مفرطةشديدة الشفافية ومفرطة الحساسية ، فيها كثير من الانطواء المقاوم والحياء الغالب . ونشأته كانت نشأة فيها صقل وتهذيب بين بيئة ذات طابع روحي يوشك ان يكون تصوفياً وذات تقليد اجتماعي يكاد يكون انفصالياً ... والرجل لم يكن على حظ من طول القامة كما لم يكن على قسط من الوسامة ، وانما كان ضئيل الجسم قصيرا كبير الرأس تلمع تحت جبينه العريض عينان واسعتان مستديرتان كثيرتا الشرود والاغضاء ، ثم تنبسط تحت انفه الكبير شفتان عريضتان يزيدهما الابتسام عرضاً وبسطاً . هذا مع صوت غير بين النبرات ومخارج حروف غير واضحة المعالم . فاذا كان ذلك الاطار يضم

---

(١) عبد العزيز دسوقي : جماعة ابولو ، ص ٤٢٥. وانظر احمد المعتصم بالله : ناجي شاعر الوجدان الذاتي ، ص ٣٢ . و محمد مندور الشعر المصري بعد شوقي ، ص ٥٧ . و بلا بل من الشرق ، ص ١٢ .

روحاً طموحاً شديد الشفافية وقلباً كبيرا دائم الحنين ونفساً عظيمة كثيرة المطالبة عرفنا كيف عانى الشاعر من الصراع داخله و نار ه.) (١)

ويعلل احمد هيكل فشل ناجي في حبه الاول (بأن فتاة احلامه رفضته لانها لم تجده على الهيأة المحببة لدى النساء . وكان هذا الرفض هو سبب احساسه الدائم بالحرمان وشعوره بالظمأ . فهو يحس بالحرمان نحو كل امرأة جميلة... ولكنهن في الغالب لم يعاملنه كحبيب . ربما كانت تلك هي عقدة حياة ناجي فعلا، تلك العقدة التي عمقت احساسه وافعمت وجدانه الرومانسي بالاحاسيس) (٢) .

وهذا الكلام يحيلنا الى كثير مما يعتقد انه يؤدي الى موقف خاص ازاء الحياة، وهو موقف الشاك المتشائم . يمسح شعره بلون فيه قتامة وفيه سواد .

ولعل ماجاء في وصف سماته الخلقية يمكن ان يسمح لنا باقرار تأثير ذلك في طبيعته النفسية . ومما يشفع لنا بهذا ان مصادر دراسته تتفق على فشل حبه الاول الذي بقي يلازمه حتى مماته .

ولكنه كان حباً من جانب واحد . وهذا ينتهي بنا الى ماحصل لشاعرنا السياب . الذي بقي حب (هالة) يلاحقه طوال سني حياته . كما بقي طيلة حياته يذكر الكثيرات ومنهن (ابنة الجلبي) صاحبة (ديوان الشناشيل) ومنهن فيما اتضح بعدئذ شاعرة أخرى معروفة . وقد حدث لناجي ماحدث للسياب . اذ يرى صالح جودت انه لولا زوجته التي كانت واسعة الافق لما استطاع ناجي ان يواصل رسالته كشاعر بجديد من غزلياته) . (٣)

على ان هذا السبب لم يكن الوحيد الذي طبع شاعرنا بهذا الطابع . فما اشار اليه ابراهيم المصري من رقة الطبع حيناً ، وحدته احياناً وعطفه وشفقته وحنينه وألمه . وغير ذلك مما ذكره المصري . يوحي كله الى هذا الطبع الخاص ذي المزاج السوداوي الخاص .

(١ - ٢) مقدمة ديوان ناجي ص ٣١ . وانظر احمد المعتصم بالله : ناجي . ص ٣٤ .

(٣) بلا بل من الشرق ص ١١ . ومقدمة الديوان ص ١٧ .

وقد وضع العقاد اصبعه على ناحية تلفت النظر ، وهي ان ناجي كان يشعر في ظل والده (بالحماية ويتفقدها ، ويعيش في ذلك الركن من الرعاية والحنان الذي يثوب اليه طالب الدعة والشكاية) . (١)

وهذه الرعاية التي كان ناجي — في بيته — يتميز بها على اخوته قد اسلمته الى شيء من الدعة والى نوع من الرعاية يمكن ان تطبع في نفسه الاعتماد على الآخرين ويمكن ان تسلمه بعد ذلك الى تفتيش على مزيد من العطف وكثير من التدلل تماماً كما يحدث لأي طفل يتميز على اخوته عند ابيه او امه ، ومن هنا تشتد العاطفة وتطغى الحساسية ويشعر الولد في ظل تلك الحال بالتميز والعطف .

على ان هناك سبباً مهماً كان له اعظم التأثير في طبع مزاج ناجي على الرقة وتوجيهه نحو مسائل الحب الرقيق ، ذلك هو اثر ثقافته في مرحلتها المبكرة، فقد كان ابوه يوجهه إلى القراءة والى الثقافة(وكان بيته منتدى له ولاولاده)(٢) ويبدو ان ما اثر فيه بتوجيه أبيه ، بعض قصص (شرلوك ، هولمز ، ورايدر ها جارد وسواها ؛ واما اكثرها تأثيرا — فيما يبدو — قصة الكاتب الكبير ديكنز) دافيد كوبرفيلد التي تتحدث عن غرامه بالفتاة (دورا) والتي يقول عنها ناجي نفسه (فلم يكن عجيباً ان ينتعش ديكنز في خيالي بسمو روحه ونقاء قلبه ، مع انه لم يكن شاعرا ولكن الذي كتبه نثرا هو في الحق أرفع واعلى من شعر الوف من الشعراء) . وكما عرف ديكنز وجوده العزيز في شخص (دورا) عرف شاعرنا .. وجوده العزيز في فتاته ع . م التي كانت احدى قريباته الجميلات . (٣) ولعل هذا السمو الروحي في قصة (دافيد كوبرفيلد) هو الذي حفزه على ان يكتب اولى قصائده غزلا عفا ، وهو لما يتجاوز الثالثة

---

(١) احمد المعتصم : ناجي شاعر الوجدان ، ص ١٦ .

(٢) نعمات أحمد فؤاد ، ناجي الشاعر ، ص ٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١١ . ومجلة الهلال عدد يوليو ، ٩٧٧ ، ص ٨٩ .

عشرة من العمر ، ولا ننسى تأثره بمطران وبقصيدته (المساء) بالذات . وهي قصيدة فيها من المشاعر الرقيقة والعواطف الانسانية ما حفز البعض إلى اعتبارها من القصائد الخالدة . (١) وقد حفظ ناجي تلك القصيدة ووعاها وعياً عميقاً ولكن هل من حقنا — مع ذكر كل تلك الاسباب — ان نغفل اثر البيئة في خلق هذه الشخصية الرقيقة العاطفية ، التي انعكست في شعر صاحبها انعكاساً يكاد لايجد له نظيرا عند غيره من شعراء عصره بحيث تميز شعره بما تميزه به شخصيته اشد التميز . والنقد منذ زمن بعيد والى يومنا هذا يضع في حسابه هذا الاثر . فلنحاول ان نتعرف عليه لنعرف مدى تأثيره في طبعه وتجسده في شعره .

خير ما يعيننا على استجلاء الصورة الصحيحة ، هو رفيق عمره — صالح جودت — فهو يشير إلى نشأته الاولى في (شبرا) وقد كانت يومئذ (حقولا تجري من تحتها نهيرات ... وتتفرع منها قنوات (٢).

ويشير صالح جودت إلى اسم تلك المدينة الصغيرة وكانت تسمى آنئذ (مدينة الاحلام ، لجمالها وسحرها . كما يشير إلى حب الشاعر الاول فيها. ذلك الحب الذي طارد خياله طول حياته على يأس) (٣) .

وهذا الحب الذي اشار اليه صالح جودت يمثل عندنا اهمية بالغة . لانه يدفع شك الذين ينكرون وقوعه له وصدقه فيه ، ويجيب على تساؤلات الذين يستفسرون عنه وعن مدى تأثيره في نفس الشاعر وانعكاسه في شعره . واليه يشير صفيه وصديق عمره اذ يقول : (وفي بيت من هذه البيوت السبعة ايضاً — ولا اسميه — كان الحب الاول في حياة ناجي الشاعر ... الحب الذي طارد خياله طوال حياته على يأس (٤) .

---

(١) انظر عبد العزيز دسوقي : جماعة ابولو ، ص ٣٨٢ — ٣٨٣ .
(٢) بلا بل من الشرق ، ص ٦ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٧
(٤) الديوان ص ١٢ .

ونحن نعطي الحق لصالح جودت في عدم اباحته باسم الفتاة لان صاحبته اصبحت سيدة متزوجة .

والى هذا الحب نفسه يشير احمد هيكل بقوله: (ان الرجل قد احب في اول عهده بالشباب) (١) . ومما يؤكد هذا الحب تأكيداً قوياً ماطلع به علينا حسن توفيق في العدد الاخير من مجلة الهلال (اغسطس ١٩٧٧) والذي يقول فيه : (والواقع انه كان بوسعي ان اتحدث عن هذه الحبيبة الاولى التي الهبت خيال الشاعر والتي ابدع فيها ارق واعذب قصائده العاطفية . لولا ان السيدة اميرة ناجي ابنة الشاعر الكبرى قد اشارت بألا افعل هذا حرصاً على الروابط العائلية ... وتزوجت ع.م واصبح لها حياتها الخاصة بعيداً عن الشاعر لكنه لم يستطع ان يمحو صورتها من ذاكرته) (٢) .

وحيث اننا علقنا اهمية على هذا الحب — وهذا ما اكدته عشرات قصائده — لذلك فان (مدينة الاحلام) هذه بالغة الاهمية سببا وجه شاعرنا ذلك التوجيه في الحب العاطفي الحالم . وليس هذا فحسب ، فقد انعم الله على ناجي الا يحل في ارض الا ويكون الله قد حباها من نعمة الجمال مايجعلها سببا من اسباب توجيه شعره ، من ذلك انه قضى عدة سنوات في مدينة المنصورة ، وهي كما يصفها صالح جودت (ارض طيبة تنبت الشعر والجمال والحب والخيال)(٣)

وليس هذا هو المهم فقط . فقد جمعته المنصورة هذه ، بصالح جودت والهمشري وعلي محمود طه المهندس ، وهم شعراء يتنافسون في شعرهم وقدراتهم انتاجاً وفناً عاطفياً . فهل يمكن ان يتجاهل الدارس اثر البيئة الطبيعية والعشرة الادبية ؟

ويبقى عامل اخير لابد ان نذكره ، وهو ثقافة الشاعر الاجنبية ، وتوجهه اليها وفهمها ، وهو فيما عدا الانكليزية كان يجيد الالمانية والفرنسية والايطالية.

---

(١) الديوان ص ٣١

(٢) مجلة الهلال ؛ عدد اغسطس سنة ١٩٧٧ ، ص ٨٩ — ٩٠ .

(٣) بلا بل من الشرق ص ٩

والمهم في هذا كله ، اعجابه بثلاثة من شعراء البحيرات الانكليز وهم شيلي وكيتس ووردزورث ، فاذا عرفنا ان هؤلاء كانوا كلهم شعراء الطبيعة والرقة والعاطفة ، وانهم رومانسيون بكل ماتمتلك الرومانسية من خصائص ومثل اتضح امامنا شدة تأثير ثقافته الاجنبية في توجيه شعره .

ان هذا التيار العاطفي لايمكن التعرف عليه الا من خلال الوقوف على الاسباب التي وقفنا عليها ، وبدونها فان الاحكام تصبح ضرباً من الوهم او اقراراً دون تعليل . وذلك لايصح مهما كان تبريره ، وايا كان تعليله . خصوصاً ان تلك الظاهرة في نفس ناجي وطبعه وفي شعره ايضاً اصبحت هي الظاهرة الكلية وليست ظاهرة تطفو على السطح ، ان صح التعبير . فما هي اذن صورة هذه النزعة في شعره ؟

لقد اتجه شعراء ابولو في نزعتهم العاطفية الى نوع من انواع الحب الروحي وقد كان كذلك عند ابراهيم ناجي بالذات لانه قد عانى بسببه من عذاب النفس وحرمان القلب ما جعله يتحول الى شعلة من العواطف المتأججة . وهي عواطف صادقة عميقة . ومن هنا سلك فيها سبيل التسامي فاكتسبت المعاني الانسانية كما اكتسبتها عواطف المحبين من شعراء بني عذرة وهذا النوع من التسامي في عواطف الحب لايتاح (الا للصفوة التي تؤمن بقيم روحية وخلقية تبلور بها عاطفتها ، فالحب العذري عف لانه حب حرم المتعة الجسدية . وهو عاطفة صادقة لانه يدوم على الرغم من الحرمان) (١) وحب ناجي يقترب في روحه من هذا الحب لاننا سنرى صاحبه يعيش لهذا الحب طوال سني حياته على الرغم من حرمانه فيه . وكذلك فان حب هذا الشاعر يرتفع في اغلب معانيه الى هذه المرتبة التي اشرنا اليها لان صاحبها ما هدف الى المتعة الجسدية منها ، ولعل هذه الناحية تشكل ظاهرة عامة في الحب الرومانتيكي الغنائي على العموم ، ومن هنا فنحن لا نجده عند ناجي فحسب وانما نلاحظه عند اغلب شعراء ابولو ، على الرغم مما نجده يدنو عند بعضهم — وهو

(١) محمد غنيمي هلال : الحب بين العذريين والصوفيين ، ص ١٤

قليل جداً ـــ الى مستوى الغريزة الحسية ، كما هو الحال عند صالح جودت .

والحق ان صورة هذه النزعة لا تتمثل عند احد من شعراء ابولو كما تتمثل عند ابراهيم ناجي . لان شعره لايجسدها بعمق فحسب بل هو يكاد يخلو من غيرها. واذا كانت هذه النزعة قد تأصلت وجداناً عاطفياً ملتهباً في شعر ناجي فما هي ملامحها في شعره ؟

من خلال استقرائنا لشعر ناجي وقفنا على ملامح ذلك التيار واتجاهاته ووجدنا تلك الملامح تتمثل في :

الحب ، عذاب الوحدة والضياع ، الحنين واللهفة ، الضيق بالحياة واللوعة ، التمرد ، الاستسلام للقضاء والقدر ، التعبير عن الطبيعة ، التأمل.

الحب :

والحب هو الاساس الذي يقوم عليه كل شعر ناجي ومن اجله غنى وانشد وتعذب وعرف الحياة ، ويكاد يكون ديوانه كما يقول محمد مندور (قصيدة حب) . والحق ان الدارس يحار اذ هو يحاول اختيار قصيدة حب لان دواوينه الثلاثة تمتليء بهذه القصائد على اننا نستطيع أن نتعرف على رؤية ناجي في الحياة وموقفه ازاء الناس من خلال حبه الذي يقول فيه .

ذلك الحب الذي علمني أن احب الناس والدنيا جميعاً
ذلك الحب الذي صور من مجدب القفر لعيني ربيعا
انه بصرني كيف الورى هدموا من قدسه الحصن المنيعا
وجلالي الكون في اعماقه أعينا تبكي دماء لا دموعا (١)

أرايت نزعة شاعرنا ؟ ففي الحب عرف الدنيا واسرارها وفي الحب عرف كيف يحب الناس وفيه احب الدنيا ومنه اطل على الحياة واشرف .

وأي حب هذا الذي يتحدث عنه شاعرنا .. انه حب روحي عف لايعرف للشهوة اليه طريقا اليس هو القائل للحبيب :

طابت بك الايام وافرحتاه أنت الاماني والغنى والحياة

(١) ديوان ناجي قصيدة ظلام ص٦٩

احبك الحب وغنى به عف الاماني الهوى والشفاه
وانما الحب حديث العلى انشودة الخلد ونحن الرواة (١)

* * *

وشاعرنا مشدود الى حبه . لايستطيع العيش بدونه ، لانه يستظل بظله ويستشف من روحه ما يخيل اليه انه يرتفع به الى عنان السماء . ومن هنا ما عرفه شهوة على الارض بل ارتفع معه روحاً الى السماء ، منها يطل على الكون وعلى الحياة . ولنستمع اليه كيف يصوره تصوير المتصوفين الحالمين :

أي روح أحسه أي سر في جناحيك كلما ظللاني
أي روح أحسه أي سحر سكبت في فؤادي العينان
لكأن الرميم ما تبعثان وكأن النشور ما تسكبان
وكأني محلق في سماء ومطل منها على الاكوان

وقد يرتفع الروح والصفاء في هذا الحب إلى درجة أسمى عند شاعرنا ، حتى يشبه إلى حد بعيد غزل المتصوفين الذين يذوبون في حبهم ذوباناً روحياً لاتستطيع معه أن تكشف عن حدود بين المحب والمحبوب . فيعود الأول جزءاً من الثاني ويصير الثاني مكملاً للأول . ويشوب هذا الحب صفاء وجلال تغلفه رقة وعذوبة هي رقة العاشقين الوطين وعذوبتهم . وانظر كيف يرتقي بالمحبوبة إلى عنان السماء تماماً كما يفعل المتغزلون من شعراء العذرية وكيف أنه يرتفع على جناحين أما قوله :

أيكون ذنبي أن رفعتك وارتفعت إلى السماء
وعلى جناحك أو جنا حي قد رقيت إلى الصفاء

أي ارتفاع هذا غير ارتفاع الأرواح الذي وجدنا أمثاله عند شعراء بني عذرة من أمثال (قيس بن ذريح) الذي يقترب في صورته من هذه الصورة التي يحب فيها (أن يجمع بينهما نسيم الجو وان يبصرا معاً قرن الشمس حين تزول وان يجمعها عالم واحد تتزاور فيه ارواحها حين يقول :

إن تلك لبنى قد أتى دون قربها حجاب منيع ماإليه وصول
فإن نسيم الجو يجمع بيننا ونبصر قرن الشمس حين تزول

(١) ديوانه ص ١٤١ — ١٤٢ ، قصيدة انوار .
(٢) ديوانه قصيدة أنت ، ص ٣١٦ .

وارواحنا بالليل في الحي تلتقي ونعلم بالنهار تقبيل
وتجمعنا الأرض القرار وفوقنا سماء نرى فيها النجوم تجول (١)

وإذا كانت هذه الصورة تختلف عن تلك في بعض ملامحها لكن الذي يجمع بينهما هو هذا الصفاء الروحي الذي ابتعد بهما عن كل متاع الحب المحسوس. ثم انظر اليه وهو يقول :

وأراك عافيتي فأضرع طالباً منك الشفاء

هل رايته كيف يسمو بحبه عن كل مادي وحسي ويبتعد بها عن الغريزة الجنسية البحتة وقوله :

وأحس وحيك من عل لي دون أهل الأرض جاء

فهو يقول صراحة ان حبه يرتفع عن الشهوة والدنية :

أيكون ذنبي أن يناط بك التعلل والرجاء

فهو صورة من صور الحب الصوفي تماماً ويصرح بعشق ليس له ثمن فهو إذن يرتفع عن الدنايا :

إني عشقتك ماطلبت على محبتي الجزاء

ثم يشير إلى انشغاله به طول الوقت :

باللهوى لا صبح لي الا هواك ولا مساء (٢)

وإذا كان منطلق ناجي في هذا الحب هو الارتفاع به عما يشوهه من غرائز الحس وانه قد ساق بسببه مئات من القصائد في حق حبيبته ع . م فكيف يمكن التوفيق بين هذا الحب الخالص الذي لاتشوبه شائبة والذي أكد الدارسون أنه قد وقع له فعلاً وانه قد أوحى اليه بهذا الغزل الروحي وبين بعض قصائده التي تغزل فيها ببعض الفنانات والشاعرات والأديبات ، وهل يوحي هذا إلى تحول الشاعر عن حبه الأول ليرتوي بما يمنحه له حب الاخريات ممن ارتبط

(١) محمد غنيمي هلال : الحب بين العذرية والصوفية ص ٣٨
(٢) الديوان من قصيدة ذنبي ص ٦١ .

بهن أحياناً من أمثال الأديبة أمينة نور الدين والشاعرة أماني والفنانات أمينة رزق وزينات صدقي وزوزو حمدي الحكيم وزوزو ماضي .

قبل كل شيء لابد أن نعرف لماذا ارتبط ناجي بهؤلاء اللائي عملن في الوسط الفني دون غيرهن ؟ يقول حسن توفيق في آخر عدد من مجلة الهلال : (وكان عمله الاضافي باعتباره طبيباً لنقابة الفنانين يتيح له أن يلتقي بالكثيرات فضلاً عن سهراته وندواته المتواصلة) .(١) وحيث أن ناجي كان يشعر بالفراغ الذي تركته في نفسه ع . م لذلك حاول أن يسد هذا الفراغ بما يخفف عنه ألم الوحدة وعذاب الضياع فانطلق (انطلاقاً جامحاً بغية أن يرتوي من الحب وكان مجال الوسط الفني مجالا خصباً لبحثه عن الارتواء الروحي لكن هذا المجال لم يكن يخلف في أعماقه سوى الزفرات والحسرات التي تزيد من احساسه بالحرمان الروحي في كل تجربة يخوضها مع فنانة أو كاتبة من الكثيرات اللواتي التقى بهن فقد كان المثال الذي خلقته تصوراته للمرأة .... مستحيل التحقق في واقع الحياة فكان إذا عرف امرأة من الوسط الفني وتوهم أنه وجده فيها عشق فيها هذا المثال إلى أن يدرك شيئاً فشيئاً أنه غير موجود في أعماقها فيتركها إلى غيرها سعياً وراءه من جديد) (٢)

وحيث أنه كان يهدف بهذا الغزل ، المثال الذي طالما سعى اليه في حب ع.م تعويضاً عن الفراغ الذي تركه في نفسه هذا الحب فقد جاء غزله بهؤلاء الأديبات والفنانات بعيداً هو الآخر عن المعاني الحسية التي ابتعد عنها في غزله بحبيبته الاولى بل أن الدارس لايستطيع أن يميز هذه القصائد عن تلك التي نظمها في حبه الأول ، ونحن نحيل القاريء إلى بعض ماصور به هؤلاء تأكيداً لهذا القول : يقول ناجي من قصيدة صخرة المكس — وهي لم تنشر بديوانه — وكانت ملهمتها الممثلة زوزو ماضي :

---

(١) مجلة الهلال ، عدد اغسطس ، ص ٩١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٩١

سلاماً ياعروس المساء أني احبك لاأمل بك المقاما
أسير إلى لقائك نضو شوقي وأرجع عن ربوعك مستهاما
أراك فتنثني روحي وقلبي كأني قد سقيت بك المداما
وان طوى البساط فنصب عيني عليك خيال أحبابي القدامى
وان طاح الزمان بكأس حبي فلا الساقي نسيت ولا الندامى(١)

أرأيت استشارته إلى حبه القديم وكيف اطاح الزمان بكأسه اليس في هذه الأبيات التي الهمتها اياه زوزو ماضي عودة وتذكر إلى حبه الأول مما يؤكد ماقلناه من أنه كان يفتش في هذا الغزل عن المثال الذي لايجده في سوى حبه الأول ؟

وحيث أنه لم يثبت في هذا الحب على حال ، فهو ينتقل إلى غيره ليقول في الفنانة والعازفة (انعام) :

رب حسن من الوداعة يبدو فيه عطف وفي حناياه بر
ولقد تحسب الوداعة ضعفا ولها دولة ونهى وأمر
فمرينا انعام من غير أمر نحن أسراك ما بأسراك حر
ومري الدهر يصبح الدهر عبدا واضحكي في فم المنى يفتر
ومري الروض يصبح الروض فينان وينمو ورد ويورق زهر
ومري القلب يخفق القلب فرحان وتحنو روح ويطرب صدر(٢)

وهكذا نجد (القلب يخفق) و (الورد ينمو) و (الزهر يورق) و(الدهر يصبح عبداً) وهي صور في الحب نجد الكثير من أمثالها في حق ع .م حبيبته الاولى

ولتأكيد هذه الظاهرة — وهي أن صورة الغزل في هؤلاء الفنانات والأديبات لا تختلف عنها في حبه الأول — بل انها امتداد لها وتمثل لمعانيها التي لاتعرف سبيلاً إلى الشهوة والحس ، لتأكيد هذه الظاهرة نورد هذه الأبيات التي يصف فيها سامية جمال فيقول :

---

(١) مجلة الهلال ، عدد اغسطس ، ١٩٧٧ ، ص ٩٦ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٩٩ .

عفـو القـوافي وعـذرا أن قصـرت فـي سؤالك
إن لـم تجـد لـك عدلا ولا نظـيـر دلالـك
حـاولـت وصـفك لما رأيـت نـور هـلالـك
فـحرت مـاقلـت شيئا يلـيـق بـاسـتقبـالك
يـا فتـنـة فـوق ظني بـالله مـالي ومـالك (١)

أية معاني في الوصف هذه وهي قيلت في حق راقصة ؟ هل تجد فيها هذا الغزل الذي تجده عند نزار قباني وأمثاله ممن كانوا يغشون هذا الوسط الفني وأمثاله يسهرون مع الغواني وبائعات الجسد ثم يقول فيهن مايقول ويصف مايصف مما نجده في كل دواوينه ؟

ثم مارأيك بوصف أو غزل قيل في حق راقصة أو عازفة أو غيرهما أيذهب الظن والتقدير إلى غير الصورة التي نجدها عند نزار وامثاله ؟ نعم هي صورة واقعية لمن يغشى هذا الوسط ويريد أن يعب من الشهوة مايتيحه له هذا الوسط الذي أشرنا اليه . لكن ناجي نأى عن ذلك كله كما رأينا ، وراح يتحدث عن جمال فيه صفاء ورواء وروح وسحر والسبب — فيما نرى — أن هذا الشاعر لم يقصد هذا التصوير من أجل المتعة — كما فعل نزار قباني — وانما كان يعتقد أنه يجسد فيه المثال الذي فلت منه ولم يستطع ان يحققه ولذلك فهو ينتقل من واحدة إلى أخرى حتى إذا لم يجد ذلك المثال راح يبكي حظه ويجسد ما يشعر من ضياع العمر والآمال .

ومما يؤكد هذا الاندماج الروحي الذي تذوب فيه ارواح المحبين قوله يتحدث عن حبيبته :

هو في الافـق بعيد وهـو دان هـو لي نفسي وروحـي وكياني
مخطىء مـن ظـن انـا مهجتـان مخطىء مـن ظـن انـا توأمـان

(١) المصدر السابق ، ص ٩٨ .

هـو شطـر النفس لاتوأمهـا هـو منهـا هـو فيهـا كـل آن
نحـن نبض واحـد . نحـن دم واحـد حتى الـردى متحـدان

وهذا التصور للحب هو الذي دفع السحرتي لان يفرق بين حب ناجي وحب غيره حين يقول : (لم يكن حبا ماديا خليعا كحب امرىء القيس أو عمر بن أبي ربيعة ، لم يكن حبا ساديا منحرفا كحب أبي نواس ... بل كان حبا روحيا فيه جذل المتصوفة) . (١)

على ان هذه العفة ، عفة الغزلين الذي تغزلوا بالعين وما تثيره في قلوب العاشقين الولهين لما تنته بانتهاء شعراء بني عذره وامثالهم فشاعرنا يعف ويصف من خلال الاحساس الصادق بتجربة العمر — كما اسلفنا — ولكنه لم ينقطع عن ذلك الشعر العف الذي اشرنا اليه ، بحيث وجدنا من يشير اليه كعامل له تأثيره فيقول : « ويبدو التأثير فيه بمهيار وابن الفارض والشعراء العذريين في العصر الاموي . كجميل والمجنون وقيس بن ذريح كما تأثر بديكنز وكيتس»(٢)

وهذا الغزل العف بالعيون قد يضع شاعرنا في موقف مشرق لاأثر للهموم والاحزان فيه ، بل هو يبتسم ويضحك ويشعر بالسعادة تحل محل الشقاء والأمل يأخذ مكان الالم ولعل هذه الابيات من قصيدة (عينان من العراق) تشير إلى هذا الجانب :

عيناك بالصفو الوديع وبالطهارة راهبـان
عيناك بالليل الربيعـي المضيء شبيهتان
عيناك بالألق العجيب المستحب خميلتان
في افق عمري كوكبان وفي شعوري لاعجان
يتخطران عليه أنغاما واعطارا حسان
عيناك اسرار مخلـدة مقدسة المعان

---

(١) محمد عبد المنعم خفاجي : دراسة في الأدب العربي ، ص ٣٠١ .
(٢) مجلة الأديب ٩٥٦/٧ ، ص ١٨ .

من صمت صحراء العـرا ق ولـيلـه مسجـبـولتـان
مـن اعـيـن الغـزلان في أربـاضـه مـخـلوقتان
مـن سـحـر بابـل واللحو ن المـوصـلـيـة غـنـوتان

* * *

عيـنـاك كـنـز أودعـت فـيـه الحـيـاة رؤى الجنان
عيـنـاك بـالالـق العجيـ ـب المـسـتـحـب تـرنمان
يـاشـاعر الالـم السعيـ ـد بـلـغـت شـطـآن الأمان
وبلغت آمال الفؤاد وحزت بينبوع الحنان (١)

هذا هو غزل ناجي يخلع عليه من الطبيعة مايحرك فيه صورة من صور الحب المتألق ، الذي لايعرف طريقه الى مجون أو خلاعة أو جسد . نعم ، لقد كان غزله بالعينين ، ولكن بم ارتبطتا ؟ بالليل الربيعي ، وبالصفو الوديع ، وبالطهارة والنور . وهما كوكبان ، ولكنهما (يتخطران انغاماً واعطاراً) ، ليخفف من اثر الوصف المادي ، حينما شبههما بالكوكبين . وهي صور نستشف من ورائها جمالا لايحققه التشبيه المباشر . وكأني بشاعرنا يجسد رأي ناقد الديوان ، وهو العقاد ، الذي دعا الى استخدام الصور عن طريق الايحاء والرمز الشفاف بعيداً عن الافراط الذي يصل الى حد الاحاجي والالغاز .

عذاب الوحدة والضياع :

شكا الرومانتيكيون من شعورهم بالضياع ، وجسدوا ألم الاحساس بالوحدة ، وقد ظنوا فيها اولا البديل للهروب من المجتمع . لكن الامهم بقيت تلاحقهم ، وفشلهم اشعرهم بضيق حياتهم ، وها هو ذا شاعرنا لايعتقد ان في هروبه من الحياة خلاصاً . فهيهات هيهات ، تنقذه الوحدة من الضيق ، وتسلمه الى الفرج :

---

(١) ديوانه / من قصيدة عينان من العراق ص ٣٢٦ .

ياوحدتي جئت آنسى وهاأنذا مازلت اسمع اصداء واصواتاً
مهما تصاممت عنها فهي هاتفة يأيها الهارب المسكين هيهاتا(١)

وشاعرنا يكشف عن سبب ضيقه بالوحدة ، ولا يتركنا نحار في التحقق من شعوره بالضياع ، فبعد الحبيب عنه هو الذي يجسد شعوره بذلك . بل انه ليشعر بألم الغربة شعوراً حاداً : وقسوة الضياع قسوة مفرطة بسبب غياب الحبيب :

اصبحت يوم الجمعة ذا غربة ماأضيعه
منفرداً لا خل لي وأين من قلبي معه
ضاقت الارض فما لي فسحة الكون سعه
اقطع يومي مبطئاً كأنني لن اقطعه (٢)

أرأيت قوله (أقطع يومي) ثم يردف (كأنني لم اقطعه) ؟ ألا يدل ذلك على ضيقه بالحياة ولو كان ضيقاً مؤقتاً لأنه اقترن بيوم الجمعة وحسب ، فلم يعد يدري اين يضع قدميه :

قلبي خلا من نسمة مشرقة مرصعة

نعم لقد فقد شاعرنا ثقته بالحياة ، وفقد معها آمالا ماكان ليظن أنها تتحول الى سراب ووهم .

ان شعور ناجي بالحب ، هو شعوره بالحياة نفسها . ولقد تحول الحب عنده الى معنى انساني نبيل ... الى الحنان .. نعم حنان الحبيب الذي صار اسى ولوعة بعد ان فقد فيه صاحبنا كل أمل بالتحقق . ومن هنا صار بعد المحبوب عند ناجي معادلا للضياع . بل لقد توسعت دلالته الى ابعد من ذلك . وخاصة حين نفض يديه منه . فما عاد يتصوره حقيقة يهدف اليها وانما صار خيالا . ولذلك ارتبط ارتباطاً عضوياً بالهموم والاحزان . .وها هو ذا ناجي

(١) الديوان : من قصيدة اصوات الوحدة ص ١٠٢ .
(٢) الديوان من قصيدة يوم الجمعة ، ص١٩٦ .

يجسده لنا ويوحي به الى خواطرنا . وحيث ان التأزم يلازمه . بل يشدد الخناق عليه . فانه يشعر بأن اللغة المباشرة تخونه فتفقد القدرة على التعبير .

ومن هنا يلجأ — كعادته — الى الايحاء يصور اعماق تجربته ويجسد هاذ (شراء الاحلام) و (بيع العمر) و (سوق المنى) و (سوق الهموم) . ويعبر عنها (بالضياع) و (فقدان الهدى) وغيرها مما يوحي بها ايحاء ليس غير

يـاحناناً كيـد الآسى الرؤوم وشـعـاعـاً يشـتـهى بعد الغيوم
انا فـي بعـدك مفقود الهدى ضـائـع أعـشو الـى نور كريم
اشترى الاحـلام في سوق المنى وأبيـع الـعمـر في سـوق الهموم
لاتـقـل لـي في غـد موعدنا فـالغـد المـوعـود ناء كالنجوم

وناجي في البيت الاخير لايشعر بالضياع فحسب . بل يستسلم استسلاماً لليأس والقدر فيعلن عن افلاسه « الغد الموعود ناء كالنجوم » .

ثم يقول :

وتـلـفـت فـلا أنـت ولا جـنـة الخـلـد ولا اطياف سعد
واذا بـي غـارق في محنتي وبـلائي . اقطع الايـام وحدي
هـات قيثاري ودعني للخيال واسقني الـوهم . وعلل بالمحال(١)

هل رأيت كيف يصير فقدان الحبيب (محنة) و (بلاء) ؟ وكيف انه يصرع شاعرنا فيجعله كتائه في صحراء . يجرع ألم الوحدة .

ثم هل رأيت الوضوح النفسي للشاعر انه مصمم الا يصدق . ولذلك فليعش على الامل حتى لو تأكد له انه الخيال وحده . وليعلل نفسه بالوهم فلعله ان يسد به فراغ نفسه .

الحق ان شاعرنا — كما قال عنه دارسوه — وعاش من اجل الحب ومات بسببه . فحبه في نظرنا هو اساس الحركة والحياة والعيش والفكر وغيابه عنه

(١) الديوان : من قصيدة الغد ، ص ٢٨٠ — ٢٨١ .

يعني غياب هذه الحركة وموت تلك الحياة ، وكدر هذا العيش وجفاف ذلكم الفكر . ألم يبذل حياته كلها من اجل ذلك الحب وانه حين شعر بجفافه (نضب خياله) و (غاض طبعه) و (مات زرعه) ؟ ! اسمعه يقول :

اجـل اهواك أنت منى حياتي وأنـت احـب مـن بـصري وسمعي

وحين شعر بغياب ذلك الحب قال :

وقـد نضب الخيال وغاض طبعي ومات عـلى حياض اليأس زرعي

أُجرجر وحـدتي في كل حشد واحمل غربتي في كـل جمع (١)

فاذا كان الحب هو موضوع كل شعر ناجي ، فمن الطبيعي ان يقترن به الشعور بملال الوحدة والضيق بسبب الشعور بالضياع .

الحنين واللهفة

لماذا فشل ناجي في حبه ؟ هذا سؤال تسهل الاجابة عنه اذا ربطناه بحياة الشاعر وما احاط بها من ظروف صعبة ومشاكل جمة .

ولكن لماذا امسى ناجي يعلل نفسه بالاماني الحلوة والآمال العريضة ثم اوحى له خياله بالاحلام والتصورات ؟

والاجابة هنا تستحيل الا اذا حاولنا التوصل الى عواطفه ومشاعره وتحدثنا اليها . ثم لو حاولنا ان نربط هذه الحاله بالسلوك العاطفي الرومانتيكي الذي يعتمد على الخيال في رسم الاحلام وتمني الآمال لخلصنا الى نوع من قناعة تفتح لنا نافذة يمكن ان ننفذ منها لنستكشف ونتعرف .

واذن فالحنين واللهفة على حب تعثر أو ذوى ، ظاهرة لاتتحقق في شعر ناجي بالذات وانما تتوافر في شعر الرومانتيكيين كلهم . وشعر هذا الشاعر يمتلىء حنيناً وشوقاً وتلهفاً على الحب ولربما على حبه الاول الذي ولد في — شبرا — قبل ان تلحق بالقاهرة ، وحين كانت طبيعتها الرقيقة وجمالها الأخاذ يوحي الى الحب ويشجع على نموه .

(١) ديوانه : قصيدة : بعد الفراق ، ص ١٩٧ .

ولا شك ان ناجي كان يدرك اخفاق ذلك الحب ولكنه مع ذلك كان يشدو له ، لانه صار عنده ذكريات لاتمحى بل لعله – على الرغم من شعوره بفشله – كان يشعر انه هو الحب . جرياً على رأي الشاعر : ماالحب الا للحبيب الاول .

وهذه الحال تذكرنا بقصة صديقه الشاعر (احمد زكي ابو شادى) الذي احب زينب في عنفوان شبابه ثم تعثر حبه واخفق أمله وظل – على الرغم من زواجه وتوفيقه فيه – يلازمه طيفاً شديداً لايمحي من ذهنه بل لقد ترك لنا ابو شادى ديواناً كاملا يبكي فيه ذلك الحب وهو (ديوان زينب) .

وعلى اية حال فان ناجي أو (ابو شادي) او غيرهما من شعراء هذا التيار العاطفي العنيف في العاطفة كانوا يعيشون على ذكريات (هذا الحب الاول) المتعثر . وعلى الرغم من تعثره الا انه يشكل عندهم ظاهرة جديدة بالدراسة .

والحق ان ظاهرة الحنين في الشعر والادب تتمثل في انواع ولكنها لدى شاعرنا لاتتعدى موضوع الحب وذكرياته :

أمسى يعذبني ويضنيني شوق طغى طغيان مجنون
اين الشقاء ولم يعد بيدي الا أضاليل تداويني

ويبدو ان ناجي كان يريد التهرب منه احياناً لانه يعذبه ويضنيه . ولكن دون جدوى فهو ابداً يلاحقه ويطعنه :

أبغي الهدوء ولا هدوء وفي صدري عباب غير مأمون
يهتاج ان لج الحنين به ويئن فيه أنين مطعون

وعلى الرغم من حنين شاعرنا الى الحب الا انه كان يدرك أذاه ومر طعمه ولذلك كان يشكو من طيفه احياناً بل انه ليصور قسوته عليه :

ويظل يضرب في اضالعه وكأنها قضبان مسجون
ويح الحنين وما يجرعني من مره ويبيت يسقيني (١)

(١) الديوان : قصيدة الحنين ، ص٣٢٢ .

ومن هنا يصير الحنين واللهفة مصدراً من مصادر الهم والألم على الرغم مما قد يتخيل فيه الشاعر من صور الحب التي قد تملأ فراغ قلبه . لان في هذا الحنين استعادة لذكريات كانت جميلة وقد لاتصبح كذلك بعد مرور الاعوام والسنين بسبب تغير في الموقف او تبدل في الحال . ومن هنا ارتبطت ظاهرة الحنين كما قلنا بالألم كما ارتبطت بالعتاب حيناً آخر . وسواء ارتبطت بهذا المعنى او بذاك . ففي كلتا الحالتين يثير هذا الحنين اللهفة والاسى والالم ، وقد يثير استغراباً حين يحصل تغير في الموقف كما في قول ناجي من قصيدة العودة التي يعدها محمد مندور (من روائع النغم في الشعر العربي الحديث تتدرج تحت فن عربي قديم هو فن بكاء الديار) (١) .

كما يعدها محمود حامد شوكت من اجمل قصائده (التي تتضح فيها نزعة التجديد من تشخيص وتجسيد وحوار داخلي وتنويع في القوافي ، ووحدة عضوية وتجربة شعورية وموسيقى صافية داخلية وخارجية تتواءم مع الحس العاطفي)(٢) .

هذه الكعبة كنا طائفيها والمصلين صباحاً ومساء
كم سجدنا وعبدنا الحسن فيها كيف بالله رجعنا غرباء

وهنا نجد ناجي يستغرب من موقف ديار الحبيبة :

دار احلامي وحبي لقينا في جمود مثلما تلقى الجديد
أنكرتنا وهي ان كانت رأتنا يضحك النور الينا من بعيد

ونتيجة لهذا التنكر من ديار الحبيبة يتساءل شاعرنا عن سبب عودته وكأنه يلوم نفسه لخذل تلك الديار له :

لم عدنا او لم نطو الغرام وفرغنا من حنين وألم
ورضينا بسكون وسلام وانتهينا لفراغ كالعدم

---

(١) انظر محمد مندور : الشعر المصري بعد شوقي ، ص٦٠ .
(٢) مقومات الشعر العربي الحديث ، ص٢٥٦ .

ويثير ذلك التنكر في نفس الشاعر الاسى والالم :

آه مما صنع الدهر بنا او هذا الطلل العابس أنتا
والخيال المطرق الرأس أنا شد مابيننا على الضنك وبتا

وحين ينتقل الشاعر الى الحديث عن تلك الديار يذكرنا بموقف شاعرنا الجاهلي على ديار الحبيبة وكأنه يستوحي منه صوره وملامحه فيقول وقد بدت في نبرته الحسرة :

موطن الحسن ثوى فيه السأم وسرت أنفاسه في جوه
وأناخ الليل فيه وجثم وجرت اشباحه في بهوه
والبلى أبصرته رأي العيان ويداه تنسجان العنكبوت
صحت ! ياويحك تبدو في مكان كل شيء فيه حي لايموت

واذا كان شاعرنا قد تحسر بسبب ماأصاب ديار الحبيب فانه كان يدرك من جانب آخر ان هذه الحسرات لاتلبث ان تذروها رياح الزمن ، ذلك ان ماحدث ان هو الاسر الحياة وطبيعتها التي رسمتها الاقدار . ومن هنا يخضع الشاعر الى الاستسلام :

كل شيء من سرور وحزن والليالي من بهيج وشجى
وأنا اسمع اقدام الزمن وخطى الوحدة فوق الدرج
ركني الحاني ومغناي الشفيق وظلال الخالد المعاني الطليح
علم الله لقد طال الطريق وأنا جئتك كيما استريح
وعلى بابك القي جعبتي كغريب آب من وادي المحن
فيك كف الله عني غربتي ورسا رحلي على ارض الوطن
وطني أنت ولكني طريد أبدى النفي في عالم بؤسي
فإذا عدت فللنجوى أعود ثم أمضي بعدما أفرغ كاسي(١)

(١) الديوان قصيدة العودة ص٣٩ — ٤٠ .

م/١٤/T

ويتفق الدارسون على أن حبه الأول الذي أخفق ، هو السبب في الهام هذه القصيدة التي تحدث عن روعتها الكثيرون . (١).

الضيق بالحياة :

حين أخفق ناجي بحبه . ونفض منه يديه صار يجتر ذكرياته يواسي بها نفسه فيحن إلى الليالي ويذكر مواقف الحب ، ويحلل ساعات الانتظار ، ولكن دون جدوى حين ينتفض من أحلامه المؤقتة ،أحلام اليقظة التي ماتلبث أن تذوب وتتحول إلى سراب .فيلهث من التعب وتنقض عليه همومه وتشتد به أحزانه وتضيف اليه الحياة من متاعبها ومشاكلها أثقالاً فوق أثقاله لايستطيع شاعرنا أن ينوء بحمله فيضيق بذلك صدره ويشتد بالحياة برمه ويضطر إلى أن يصيح :

حان حرماني وناداني النذير ماالذي اعددت لي قبل المسير
زمني ضاع وما أنصفتني زادي الأول كالزاد الأخير
عمري من أكاذيب المنى وطعامي من عفاف وضمير
وعلى كفك قلب ودم وعلى بابك قيد وأسير

وإذا كانت هذه هي حاله فما الدنياوما طعمها ولم الحياة وفيم الانتظار ؟

كل شيء صار مراً في فمي بعدما أصبحت بالدنيا عليما
آه من يأخذ عمري كله ويعيد الطفل والجهل القديما(٢)

وهكذا تتحول الكلمات عنده إلى آهات ،بعد أن ثقلت الدنيا عليه ، وحملته من همومها واكدارها مالا يطيق ،وكأنه صار يشعر باللهث والتعب من طول المسير والكد العسير .. ومن هنا يصاب بالحنين إلى عهد الطفولة كما يلاحظ ذلك ماهر حسن فهمي . وهذا لايتضح في قوله (ويعيد الطفل والجهل القديما) فقط انما هو يتضح عنده في قصائد كثيرة حتى تصبح ظاهرة في شعره لأن العودة

(١) انظر احمد المعتصم بالله ناجي ص ٢٤ . صالح جودت بلابل من الشرق ص ١١ . محمد مندور : ص ٦٠

(٢) الديوان : قصيدة الوداع ، ص١٨١.

إلى الطفولة كما يوضحه الشطر الأخير يعني العودة إلى حبه الأول والعودة إلى هذا الحب « أشبه بفرار الطفل المذعور إلى حضن أمه » (١). وهذا يذكرنا بحنين السياب إلى حبه الأول الذي ارتبط تمام الارتباط بحنينه إلى أمه التي تركته وهو طفل فحرم من حنان الأمومة ،فقد كان حنينه إلى جيكور — موطن حبه— هو الحنين إلى الطفولة الذي ارتبط بحب هالة وبحب الام .

وهذا يلفتنا أيضاًالى ظاهرة لاتقف عند ناجي أو السياب فقط إذا تذكرنا ان الحب قد توزع عند الرومانتيكيين بين حب الأم وحب الطبيعة وحب الأرض كلها إذ يألف الرومانتيكي الطبيعة (وينشد فيها وحدها العزاء وخاصة إذا ظفر بين مناظر الطبيعة بحبيب يجد فيه العوض عن الجنس الانساني كله .(٢) .

والذي جعلنا نربط بين هذا كله : الحب ، الطفولة ، الأم ، الطبيعة ، الأرض هوانها تمثل لدى الرومانتيكيين جانباً انسانياً طالما بحثوا عنه وسعوا من أجله. وهذا الجانب الانساني يمثل عندهم بعواطف مشبوبة لاتلبث أن تنتهي في كثير من الأحيان إلى الضيق بالحياة والشعور بخيبة الأمل والشكوى المقترنة بالحسرة .

وهذا ماعبر عنه شاعرنا في قصيدة بعنوان (شكوى الزمن) إذ أنه يتحسر على ماتبقى من عمره ويذكر شيب شعره ويعتب على زمان يذل الرجال ويتالم حين تتحول الآمال إلى سراب وتجدب الأرض بعد نضرة وحياة ، ويتحسر على جهود تضيع ووعود تذروها رياح الأيام :

ياويلتا من عمري الباقي	هذا سواد تحت احداقي
هذا بياض الشيب واعجبي	من مغرب في زي اشراق
ويلي على كأس معربدة	وعلى دم في الكأس مهراق
وعلى سراب خادع	وعلى متالق اللمحات براق
طاف الزمان به على نفر	مالوا بها مات وأعناق

(١) ماهر حسن فهمي : الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث ص١٢٤ .

(٢) انظر بحثنا (مظاهر الرومانسية في شعر محمود درويش / مجلة آداب الرافدين ؛ العدد : ٢ لسنة ١٩٧١ ،ص١٤١ ، وانظر غنيمي هلال / الرومانتيكية ، ص١٧١)

ما حيـتي والأرض مجدبة سيـان أقلالـي واغداقي
أيـن الذيـن رفعت فانحدروا وبنيتهـم بـنـيان خـلاق
تيهات أنى انهم عبثوا ووفيت لم أعبث بميثاقي (١)

والضيق بالحياة يدفع بشاعرنا أحياناً إلى الغوص وراء فكرة معينة يناقش بها حياة الانسان ،لماذا يحيا ولماذا يموت ؟ ولكن حين يكون منطلقه الملل من هذه الحياة والضيق بمتاعبها فإنه لاينتظر كثيراً ليعطينا الاجابة ،نعم انه يسرع ليقول لنا أن الانسان ضحية في هذا العالم يتقاذفه الموت والحياة :

مللـت هـذي العـوالـم مهـزلـة المـوت والحياة
وصورة القيـد في المعاصم ووصمـة الذل في الحـياة

فهو يمل الحياة إذن لما فيها أيضاً من ذل الانسان وفقد لكرامته ولهذا اتراه يكثر من بث الشكوى وبث الأنين ويضيق صدره بحيث لايتسع لهذا وذاك :

كـأن صدر الظلام ضـاق من كثـرة البـث كل حين
ياويـحـه كيف قـد أطاق شكـوى البرايا على السنيـن

ومرة أخرى نعود فنسأل : ماسبب هذا الضيق وفيم هذا التحسر ولم هذا التشكي والتبكي ؟ وسرعان مانعثر على اجابة ولكن من دون تخمين أو افتراض الم نقل ــ قبلاــ ان حبه العاثر يشكل مشكلة المشاكل ؟ ها هو ذايجيب بنفسه فتكون الاجابة مقنعة تغنينا عن افتراض الأسباب :

تمر كرى وراء ذكـرى وكـل ذكـرى لهـا دموع
وتعبـر المشجيـات تـتـرى مـن كـل ماض بـلا رجوع

ثم يقول :

ماض وكـم فيـه مـن عثار ومـن عذاب قـد انقضى
كم قلـت لايرفـع الستار ولا ادكـار لمـا مـضـى

أرأيت كيف شدد على كلمة « ذكرى »؟ هنا إذن يكمن السبب . ولكي

(١) الديوان : قصيدة شكوى الزمن ، ص٢١٣ .

يؤكد الشاعر عمق مأساة حبه العاثر عاد يقول في نهاية القصيدة :

لاتحسبوا البرء قد الم فلم يزل جرحنا جديدا
يخدعنا أنه التأم ولم يزل يخبأ الصديدا

ترى إلام ينتهي حال كهذه ؟

هل نحتاج إلى اعمال الفكر وكد الذهن لكي نعلل ونفسر ؟ لااعتقد لان ناجي نفسه قد وفر علينا هذا التعب فقال من القصيدة نفسها :

ياأيها الليل جئت أبكي وجئت أسلو وجئت أنسى
طال عذابي وطال شكي ومات قلبي وما تأسى (١)

إن لجوء شاعرنا إلى الليل يعكس صورة نفسه المحطمة التي اضناها الانتظار واتعبها العذاب والليل عند الرومانتيكيين قد احتوى تجاربهم وعكس مآسيهم وفي اللجوء اليه نوع من انواع اسقاط الذات على الطبيعة .

التمرد :

ولجوء الرومانتيكيين إلى مظاهر الطبيعة لايعني انه الاستسلام وحده فاقترانه بالبكاء والشكوى والعتب قد يصل بصاحبه إلى نوع من انواع الاستسلام ولكنه قد يدفع به احياناً إلى الثورة وهذا هو الجانب الثاني من الرومانتيكية بل هو الجانب الاقوى فيما نظن . (٢) لان اساس هذه الحركة كان تمردا وثورة على المجتمع الكلاسيكي وقيمه وافكاره . وكان للادب نصيب وافر في هذه الثورة. وهذه المسألة بدهية من بدهات الحياة لان اليأس في كثير من الاحيان لايدفع إلى الاستسلام بل يدفع إلى التمرد .

ولانستغرب من ان يغضب ناجي ويثور ويتمرد بسبب ماقد تجد من استسلامه وبكائه ويأسه . الم نقل ان عمق الالم وشدة المصاب يدفع الانسان

---

(١) الديوان : قصيدة الليالي ، ص٢٩٠ – ٢٩٢ .

(٢) انظر بحثنا في هذا الموضوع : مظاهر الرومانسية في شعر محمود درويش . مجلة آداب الرافدين . العدد الثاني ، ١٩٧١ ، ص١٣٣ .

احياناً إلى ان يثور ويتمرد ؟ ولكن ماالذي يدفع إلى هذا التمرد ؟ نحن نعتقد ان سببه عند ناجي هو احساسه المفرط بعاطفة الحب واخفاقه فيه ، وهذا لايحمله على الاستسلام بل قد يدفعه إلى الاحتفاظ به تمرداً وثورة .

وهذا بالضبط ماأشار اليه ابراهيم المصري حين قال (إن شدة احساس ناجي بالعواطف الرقيقة هي التي تضاعف شعوره بالألم ... وهذا هو السر في تشاؤم ناجي وفي أزمات التمرد والسخط التي تنتابه) (١).

وانظر اليه كيف يدفعه الألم ويحفزه اخفاق الحب على ألا يستسلم وإنما يغضب ويثور ،ويضطر في آخر الأمر أن يمزق أعزّ مايصل بينه وبين حبه . رسائلها فيقول :

ذوت الصبابة وانطوت وفرغت من آلامها
لكنني القى المنا يا من بقايا جامها
عادت الي الذكريا ت بحشدها وزحامها
في ليلة ليلاء أ رّقتني عصيب ظلامها
هدأت رسائل حبها كالطفل في أحلامها
فحلفت لا رقدت ولا ذاقت شهي منامها
أشعلت فيها النار تر عى في عزيز حطامها
تغتال قصة حبنا من بدئها لختامها
وبكى الرماد الآدمّي على رماد غرامها (٢)

والقصيدة تحمل طابع الرمز الشفاف الذي اتخذه شعراء الديوان وشعراء ابولو والذي دعا اليه العقاد في نقده وهذا هو – في رأيي – سر جمال هذه القصيدة الرائعة لأن مثل هذا الانفعال العاطفي الذي يؤكد عمق التجربة الشعورية لدى شاعرنا في هذا الموقف لاتستطيع به اللغة المباشرة أن تفي بأعمق

(١) ابراهيم المصري ، صوت الجيل ، ص١٤٠ .
(٢) الديوان : قصيدة رسائل محترقة ، ص٢٨٢ .

مشاعر الحب وعواطفه وكانت عنيفة لدى هذا الشاعر- كما عرفنا - ومن هنا يلجأ إلى رمز يوحي به عن مكنونات صدره الذي تتأججه تلك العواطف التي اليها أشرنا. ومهما يكن من أمر هذه الأبيات فإن الشاعر يبدو فيها وقد تأججت عواطفه وثار على أعزّ ما يمتلك .. نعم ثار على حبيبته من أجل حبه الذي أخلص له وسهر الليالي من أجله .ولكن الحبيب لم يف بوعده فحز ذلك في نفس شاعرنا فتمرد في لحظة من لحظات العنف العاطفي الذي لايقوى على دفعه أو التخلص منه ، الا بهذه الثورة .ولعل ما في هذه الأبيات من الفاظ بعضها يدل على العنف وبعضها الآخر يعبر عن الرقة يدل دلالة أكيدة على صورة التأزم النفسي التي عاناها في مواقف التجربة الأصيلة .

ثم نأتي بعد هذا إلى قصيدة الاطلال وهي (قصه حب عاثر التقيا وتحابا ثم انتهت القصة بأنها هي صارت اطلال جسد وصار هو اطلال روح) (١)

وفي هذه القصيدة الطويلة التي خلدتها ام كلثوم حين غنت بعضها- تكتمل ملحمة الحب الضائع التي راح ضحيتها ناجي نفسه . ففي القصيدة نستطيع ان نتأكد من صدق هذا الجانب الذي ندرسه ، وهو الثورة والتمرد لانه جانب مهم من القصة بل جانب مهم من ابراهيم ناجي الرومانتيكي . والقصيدة تتراوح موجاتها بين الارتفاع الذي يمثله التمرد والانخفاض الذي يجسده الاستسلام والخضوع للقضاء والقدر والذي عبر عنه بقوله :

ايها الشاعر خذ قيثارتـــك غن أشجانك واسكب دمعك

وهذا جانب سنتركه الآن لنتعرض للجانب الذي يهمنا وهو التمرد وقد عبر عنه بقوله :

اعطني حـريتي اطلـق يـدي انني اعطيت ماستبقيت شيء
آه مـن قيدك أدمى معصمـي لم ابقيـه ومـا ابقي علـي؟
ماحتفاظـي بعهـود لم تصنها والام الأسر والدنيـا لـدي (٢)

(١) الديوان ، ص٣٤١ .
(٢) الديوان : قصيدة الاطلال ، ص٣٤١ .

هذه هي صرخة اليأس وهذا هو تمرده ، ولم تستغرب من الشاعر اذهو يستنكر استسلامه ويأسه واحتفاظه بحب الحبيب وهل تعتقد انه فعل ذلك قبل ان يجابهه الموقف الصعب ؟ اذ ليس اصعب على الانسان من ان يضحي بما هو عزيز عليه وهل هناك أعز من حب يكتوي بناره قلب شاعر لابل يرى فيه وجدانه وحياته ؟

واذن في حاله لم يستطع فيه شاعرنا ان يمتلك زمام قلبه وعاطفته يتمرد بسبب هجر الحبيب له . واعتقد ان في البيت الثاني مايؤكد وجهه نظرنا فليس اصعب على ناجي من ان يقول (مااحتفاظي بعهود لَمْ اصنها) لانه يقول (لم ابقيه وما ابقى علي) لعله فعل كثيراً من اجل ابقاء حبه ولكنه لم يظفر فما حيلته والدم ينزف من جرحه ؟ لاشك انه الغضب والثورة ومن حق صاحب الحق ان يثور :

لكنني والجرح يلهب لي حسي ويكوي كي احراق
هيهات أنسى أنهم عبثوا ووفيت لم اعبث بميثاقي (١)

فشاعرنا يغضب ولكن غضبته، سحابة صيف لاتلبث ان تنقشع .

الاستسلام للقضاء والقدر :

واذا حاول ناجي ان يثور لكرامته ويتمرد من اجل حبه في بعض قصائده ، فان هذه القصائد لاتكاد تشكل ظاهرة امام مئات القصائد التي يبدو فيها الشاعر شاكيا باكيا او متشائما ، فهذه الاخيرة لاتشكل ظاهرة او تيارا عاطفيا معينا فحسب وانما هي سمة مميزة لشعره ونزعة أصيلة تؤكد قسوة تجربته التي اخفق فيها الحب .

والحق ان الاستسلام نوع من انواع الهروب من الحياة يصاب به صاحبه حين تعجز الاسباب عن تحقيق أمل او تجسيد طموح او ماشاكل ذلك مما

(١) الديوان ، قصيدة شكوى الزمن ، ص٢١٣ .

يسعى إلى تحقيقه ، فيعجز ثم يكف عن المقاومة ، بعد ان تنهد قواه وتضعف عزيمته ويصبح عاجزا لاحول له ولاأرادة .

وقراءة واحدة لديوان ناجي تؤكد لنا طغيان هذه الظاهرة في شعره العاطفي فما بكاؤه وشكواه ، وانينه وكآبته وألمه وعذابه وهروبه من الحياة الا دليل استسلامه .

ويبدو لنا ان احداث الحياة كانت تقسو على عواطفه حتى انهكته وتركته فريسة لأحلام يجترها من ذكرياته الماضية وسنين حبه البعيدة ولكنه ما أن ينتفض من نومه وينتهي من حلمه ويواجه واقعه حتى يهتف :

اصبحت من يأسي لو ان الردى ... يهتف بي صحت به هيا
هيا فما في الارض لي مطمح ... ولاأرى لي بعدها شبا
ماذا بقائي ههنا بعدما ... نفضت منه اليوم كفيا
أهرب من يأسي لكأسي التي ... أدفن فيها ألمي الحيا
ياايها الهارب من جنتي ... تعال أو هات جناحيا
نبكي شبابينا ونبكي المنى ... وترتمي بين ذراعيا (١)

أرايت كيف يهتف بأعلى صوته طالبا موتا ينقذه من يأسه ويخفف عنه ألمه ؟ وفي البيت الرابع يكشف عما تنطوي عليه حاله من بؤس وشقاء وألم وعذاب فهو موزع بين وساوسه التي القت به في احضان اليأس ، حتى اذا لاذ بما ينقذه ، لم يجد غير الكأس يدفن فيها المه . ولك ان تتخيل وصفه وهو يفضي اليك عن استسلامه ويأسه وعن طلبه الموت فيقول متسائلا :

ماذا بقائي ههنا بعدما ... نفضت منه اليوم كفيا

وهل تراك تعجز عن معرفة السبب .. (انه المطمح) الذي اشار اليه في البيت الثاني وهو الحب الذي بكى من اجله ثم تعذب فثار . واخيرا هو يستسلم فيطلب الموت لانه طريق الخلاص .

---

(١) الديوان : من قصيدة يأس على كأس ، ص٣٤٩ .

وكثيراً مايلجأ ناجي في استسلامه إلى التساؤل والاستفسار ويتحدث إلى حبيبته عما دفعت اليه المقادير وكأنه لم يقنع بما قسمت له هذه المقادير وكأنه ايضا يحتج عليها بما يتخذ من اسلوب المحاجة كأن يقول :

لم يـا أليـف خـواطـرى غفت العيـون ونحـن لـم
والام تـدفعنـا الحـوا دث في عبـاب يلتطـم
دفعت بمـركبنـا المقـا ديـر الخفيـة والقسـم
خرجت ومـا تدرى الغـدا ة بـأى صخـر تـرتطـم
بـدأت على ريـح الـرضا والله يـدرى المختتـم (١)

وهكذا نجـد الشاعر يتوقـع مـا قد تخبئـه لـه المقاديـر .

ويلاحظ ان ناجي يستسلم للقضاء والقدر حين ييأس وهو يؤمن به حين يشعر ببصيص من امل بتحسن حاله وعودة حبه . كذلك يلاحظ ان الشاعر ههنا لايستقيم على حال من الاحوال ، فبينما نراه في اوج غضبه اذا به يتحول إلى شيء آخر ، شأنه شأن الاطفال الذين لايثبتون على حال ولعل ذلك يرجع إلى ان ناجي (رقيق فياض العاطفة تستطيع دمعة من الحبيب ان تطهر الدنيا التي اشقته بحرا من الآثام) . (٢)

وعلى الرغم من هذا القلق الذي كان ينتاب شاعرنا ويؤدي به إلى الايتخذ موقفا ثابتا لايحيد عنه الا أنه كان شديد الوضوح في مواقفه في كثير من الاحيان فاذا كان الحب لديه يعني السعادة فانه امام هذه الفكرة لايساوم ولايجامل اذ السعادة لايمكن ان تتجزأ او تنقص فينال الانسان بعضها ويترك منها البعض الآخر : فقليل من السعادة لايكمل فيه ولايطول الهناء .

ولعل استسلام الشاعر للاقدار لم يكن مسألة سهلة ، يقدم عليها بمحض

(١) الديوان : قصيدة ليالي الارق ص٢٩٥ .
(٢) نعمات احمد فؤاد : ناجي الشاعر ، ص٤١ .

ارادته وليس من السهل عليه ايضا ان يرضى بما قدر له ، فهو يخضع ويستسلم ولكن بعد ان لايكون هناك سبيل آخر غير الاستسلام . وفي هذه الحال يواجه شاعرنا الواقع بشيء من القناعة ولكن في حالة من حالات اليأس والاضطراب . وهي حالة قد لايستطيع الانسان فيها ان يمسك زمام السيطرة على تفكيره . وها هو ذا ناجي يسائل نفسه عن سبب بقائه وانتظاره وكل شيء قد ولى وضاع .

مـابقائي واجمـل العمر ولى ... وانتظارى حتى يحين الشتاء
يطلـع الفجـر مرهفا شاحب النور ... عليـه الكـسـلال والاعياء
وبنفسي دب المساء وحل الليل ... من قبل ان يحين المسـاء (١)

فهو هنا يحاول ان يقنع نفسه بطلب الموت والرحيل عن الدنيا . وناجي يؤمن بالقضاء ويستسلم للقدر ولعل ذلك يرجع إلى رهافه حسة ورقة عاطفته . وطبع كهذا لايمتلك القدرة على مجابهة الامور وعلى الرغم من انه ثار وتمرد احيانا على قدرة ، لكنه سرعان ماكان ينتهي إلى الاستسلام وهو استسلام يختلط بالأمل كقوله من قصيدة الاطلال :

ياحبيبي كـل شيء بقضاء ... مـا بأيدينا خلقنا تعسـاء
ربما تجمعنـا اقـدارنـا ... ذات يـوم بعـدمـا عـز اللقاء
فـاذا انكـر خـل خلـه ... وتلاقينـا لقـاء الغـربـاء
ومضى كـل إلى غـايتـه ... لاتقـل شئنـا وقل لي الحظ شاء(٢)

أترى كيف يتعلق شاعرنا ببصيص من امل فاذا هو يستعمل (اذا ، وربما) وامثالهما في شعره كثير . وهو يوحي الينا كيف انه — وهو العاجز المستسلم — لايقنط من رحمة ولايرفض أملا قط .

ثم أترى ايمانه الشديد بالقضاء وبالقدر ، فالبعد واللقاء والسعادة والشقاء كل ذلك شيء مكتوب لاقبل للانسان بمجابهته وتغيير مجراه .

(١) الديوان : قصيدة ملحة السراب ، ص٥٧ .
(٢) الديوان : قصيدة ملحمة الا طلا ل ، ص٣٤٦

ومن منطلق فكرة الجبر هذه ارتبط استسلامه بالشكوى والأنين واختلط اسلوبه بالاستفسار والتساؤ ،

هبنـا شكونـا بلا انقطـاع ماحـظ نـاء بـلا سميع
وحـل شعـر اذا أطـاع ياليتـه عـاش لايطيـع (١)

ومن هنا كثر استخدامه لحروف النداء والاستفهام والشرط وامثالها . وفي معالجة هذا الاتجاه تبرز قدرة ناجي على تصوير مأساة نهاية الشوط . والاستسلام لايعني الا نهاية الشوط حيث تنتهي المقاومة وينسحب البطل من ساحة المجابهة وذلك يحتاج من الشاعر الفنان قدرة لمعالجة هذا الموقف وحالته النفسية وهي على اشد ماتكون انهاكا وضعفا واستسلاما للمقادير. ويكفي أن نحيل القارىء الكريم إلى بيتين اثنين يجلوان هذه الصورة تعبيراً عن عمق المأساة فيسدل الستار على هذه القصة التي يعبر عنها بقوله :

ياليهـا الليل جئت أبكـي وجئت اسلـو وجئت أنسى
طـال عذابي وطـال شكـي ومـات قلبـي وما تأسى (٢)

اللجوء الى الطبيعة :

لماذا يلجأ الرومانتيكيون إلى الطبيعة وبم عبروا عن نفوسهم من خلالها ؟ سؤال لاتصعب الاجابة عليه لدى أي باحث ، حين يعرف طبيعة هؤلاء الناس والشعراء منهم بخاصة وحين يدرك ايضا انهم ضاقوا ذرعا بالمجتمع وبمثله ووضعوا عليه اللوم فيما حاق بهم وضاقت به صدورهم واتهموه بالقسوة والظلم ولم يجدوا خيرا من الطبيعة ينشدون فيها العزاء والسلوان (ويبثونها حزنهم ويناظرون بين مشاعرهم ومناظرها) . (٣) فحديثهم عن هيجان البحر ارادوا به تجسيد مايضطرب في نفوسهم من ثورة وتمرد . ونشدانهم الخريف صوروا به مرض نفوسهم وأفو ، عياتهم .

(١) الديوان : قصيدة الليالي ، ص٢٩١
(٢) المصدر نفسه ص ٢٩٣
(٣) محمد غنيمي هلال ، الرومانتيكية ، ص١٧٧ – ١٧٨

وقد اهتم شعراء ابولو اهتماما خاصا بالطبيعة وسموا بها (في شعرهم فاصبحت الحرم المقدس الذي يلجأون اليه في ابتهالات روحية ضارعة فهي جديرة في احضانها زاداً ورحمة وحنانا . ولايكاد يخلو شعر واحد منهم من ذلك الغناء الروحي الخالص للطبيعة التي تكون في كثير من الاحيان متنفساً لأحزان النفس او تعويضاً عن فشل في التكيف مع واقع الحياة وصراعات المجتمع ودنيء الناس) (١)

وناجي من اكثر شعرائنا المحدثين لجأوا إلى الطبيعة استهوت نفسه بكل مظاهرها ، في حالتي الرضى والغضب والراحة والتعب وحين يكون سعيدا راضيا أو شقياً ساخطا .

فاذا ثار راح يستوحي البحر غضبه حتى او (نزت الامواج في اوصاله) :

وانا اليوم اجتليك من الشاطيء ... تزجى الامواج مثل الجبال(٢)

فاذا بي اثور مثلك يابحر ... وتنزوا الامواج في اوصالي (٣)

واذا ضجر وشعر بقلبه يتزلزل كما يتزلزل البحر على راكبه راح ينظم ابياتا بعنوان (عاصفة) ليصور ماتعصف به نفسه ومايضطرب به فؤاده فيقول :

زلزل البحر على راكبه ... مثلما زلزل قلب ضجر

سفر صارعلى طالبه ... ركب ضنك والمنايا سعر

وهو يفصح عما في نفسه من ثورة ويأس بما يصور من موج البحر وعبابه وصخوره وكلها رموز توحي إلى مافي نفسه من اضطراب هو اضطراب البحر بقوته وعنفه وثورته :

صورة للبحر أم صورة نفس ... عندما النفس من اليأس تثور

قد علا الموج وقد عز التأسي ... فم يعد الاعباب وصخور (١)

رايت كيف تختلط علينا الصور فلا نعرف ايها للشاعر وايها للطبيعة بل لانعرف هو نفسه حدودا بين عاصفة نفسه وعاصفة البحر .

(١) محمود حامد شوكت : مقومات الشعر العربي الحديث ، ص٢٦٩

(٢) الديوان : من قصيدة يا بحر ، ص٢٥٧ .

(٣) الديوان : من قصيدة عاصفة ص١٨٤ .

وهكذا نجد شاعرنا في كل قصائده التي يخلع فيها على الطبيعة مايختلج بصدره ويثور في نفسه .

كثيراً مايعتب شاعرنا على البحر لانه :

لايسمع البحر الغضوب إلى شاك ولا يصغي إلى احد
كم لاح لي حرب الحياة على أمواجه المجنونة الزبد

أترى كيف صوره حين منحه الحياة فراح يبثه شكواه ويشكو اليه ضيق صدره لكنه — اى البحر — حين لم يستجب ، صوره شاعرنا بصورة الخصم العنيد وكأن امواجه تجاربه .

أرأيت كيف يستطيع الشاعر الفنان ان يمنح الحياة بكل شيء ، لكن ذلك يستدعي شرطا اساسا في الابداع الفني . وغذاء الشرط هو الصدق في التجربة . وما اظن ان شاعرنا قد فرضت عليه التجربة بل انها قد نبعت من قلبه ، وخرجت من اعماق نفسه المضطربة . ولم يكتف ابراهيم ناجي بما صوره في الابيات السالفة وانما راح يخلع على هذا البحر ضيق نفسه وما تعصف بها من اضطراب . وراح يستوحي تلك الحال من سواد الليل فيقول في القصيدة نفسها :

ورأيت طيف الضنك مرتسما في عاصف الانواء مطرد
في الليل مد رواقة وثوى كجوانح طويت على (١)

واذا كان ناجي قد لجأ إلى الطبيعة ليتخفف من وطأة الحياة وما تملي عليه من مواقف صعبة فهل استجابت الطبيعة لهذه النفس الآسية المكلومة وهل هي بخلت عليه في مظاهرها التي توحي بما في نفس الشاعر وهو لايطيب له ان تتحطم نفسه امام عوادي الزالزمن ومكائد الايام ، بل ان تلك العواطف الرقيقة لايمكن ان تنهض بما يؤجج نفسه من احزان سببها فشل الحب العنيف .

---

(١) الديوان : من قصيدة الميعاد ص١٢٧ .

ومن هنا وجدنا الشاعر يعقد صلته الوثيقة مع الطبيعة ومظاهرها ، وان كانت هذه الصلة قد وصلت حد الخصومة احياناً ، حيث نجد الشاعر يشك في مواقفها حين لاتستجيب لندائه ، فتخفف عنه اعباءه وتكبح من جماح الفشل الذي يلاحقه .

واذا كان البحر — وهو من اكثر المظاهر الطبيعية وروداً على لسان الشاعر ومن اشد المظاهر تجسيدا لحالاته النفسية المتأزمة بما عبر عن غضبه وثورته وصخب نفسه فانه — اى البحر — قد عبر احيانا عن ارتياحه في حالات اشراقه وانفتاحه على الحياة وشعوره — ولو إلى حين — بالسعادة . ومن هنا كان التعامل مع البحر في صورته الثانية يمثل جانبا ايجابيا ابتعد بالشاعر عن امواجه الصاخبة الهادرة إلى انغامه الحلوة الرقيقة فاذا الامواج هادئة واذا المياه رجراجة توحي بالانغام الجميلة ، واذا بالانوار تذوب فيه بأطيافها السحرية :

في هـــدأة الاظـــلام أحيـــا مـــع الامـــواج
أحيـــا على الانغـــام مـــن مـــائك الـــرجـــراج

ذابت بلك الانوار سحرية الاطياف
نشوانـــة التيـــار كـــالزورق الـــرجـــاف

واذا بالشاعر يتعامل مع مظاهر الطبيعة بروح الانسان المرح والفرح بعيدا عن التشأوم والضيق ، واذا هو يندمج بهذه المظاهر اندماج كل رومانتيكي يرمي نفسه في احضان الطبيعة تخلصا من شرور المجتمع ومتاعب الحياة . ومن هنا صارت :

الصخـــــرة الســـمراء راحـــت تناديـــنـــي
والنجمـــة العذراء أمست تناجيـــنـــي
والـرمـل والاصداف في بهجـة العـرس
والشاطيء العـــزاف محبب الهمـــس

ولا كتفي ناجي بهذا كله وهو يقف على شاطيء البحر الابيض في الاسكندرية بل هو يتمنى ان يكون موجة من موجات ذلك البحر ليغني مع لجة سرا من الاسرار :

يا ليتني موجـــــة من موجك الهـــدار
أغني مع اللجـــــة سرا من الاســرار (١)

ويكفي أن يؤكد هذه الحالة النغم الموسيقي الهادىء والألفاظ المهموسة والتعبيرات الرقيقة وهذا ماسنشير اليه في دراستنا الفنية .

وعلى أية حال فإن البحر كان من أشد مظاهر الطبيعة صلة بشاعرنا ولذلك آوى اليه وخلع عليه من نفسه وحاله مايؤكد هذه الصلة .

ولكن البحر لم يكن إلا مظهراً واحداً من مظاهر الطبيعة فهناك من مظاهرها الأخرى مايمكن أن يستوحيها الشاعر تعبيراً عن حالته المحطمة ونفسه المتأزمة. وثورته العارمة التي تعصف كما تعصف الريح معولة . بل أن ناجي يرسم صورة من صور الطبيعة متكاملة متماسكة فيما وضع داخل اطارها من مجالات الطبيعة الأرضية والطبيعة الفضائية وفيما حققه من وحدة عضوية متماسكة يشدها هذا الخيط الفكري الملفع بالسواد ، المحاط بالتشاؤم الذي ينظر إلى الحياة نظرة سلبية حادة ، يعكسها تأزم حالته النفسية المحطمة وفيما منحه شاعرنا أيضاً لتلك المظاهر من حياة وحيوية ، يجعلنا نعتقد أنه لايتعامل مع مظاهر جامدة لاتنطق أو تفهم ، وإنما هو يحاور انساناً يفهمه ويستمع اليه . متخذاً من لغته وموسيقاها التي تثير أنغام الحزن والأسى ، وسيلة للايحاء عن طريق الرمز الشفاف ومما وفره في هذه الصورة الرائعة من مظاهر الحركة واللون وغيرها وسيلة من أروع الوسائل التي يجسد لنا فيها صدق تجربته الشعورية .

وفي القصيدة كما يبدو ، مصداق لاحدى حالات التأزم والشعور بالأسى العميق والضياع وسط بحر من الآلام والشكوى والأنين وفيها يقول :

---

(١) الديوان : قصيدة إلى البحر ص١١٤.

أقبل الليل بالظلام وبالريح تدوى بصوتها الصخاب
مستسر يدب كالراهب الشيخ مهيبا يسير للمحراب
والنجوم البعاد تومض في الافق وتبدو كأعين المرتاب
وذماء الضياء كفنه الليل فأغفى كنجمة بالعباب
وعويل الرياح يملأ سمعي ويثير الدفين من أوصابي
وطيوف الفناء تعدو أمامي هاجسات على نضير شبابي

* * * *

والعواء المخيف ردده الافق فدوى صداه في أحنائي
وهدير الامواج يعصف كالرعب بنفسي في وحدتي الخرساء
والفضاء الجهوم قبر وسيع ساخر مطبق على اشلائي
صارخ انت في ظلام على الار ض وإن كنت من شفيف الضياء
انت اعمى يسير في وحشته القفر وحيداً يدب في الظلماء
والمهاوي على طريقك شتى تتراءى كالفكرة القمساء
فتهاويت في خشوعي للار ض وفي مقلتي دمع ذنوبي
وتلبثت في سجود اصلي وصلاتي في دمعي المسكوب
وانا مطرق اسر الى الا م شكاتي ولوعتي ولغوبي
اين اين المعاد والراحة الكبر ى لنفس المشرد المنكوب
لم تجبني غير الرياح التي هـ زت كياني وجددت تعذيبي
لم تجبني ياحسرتا لم تجبني غير الفين : شقوتي ونحيبي
ودوى الرعد فانتبهت وشيكا واذا بي كالبلبل المسجون
فوددت المسير في المهمة السمـ ـماء لكن طفت بقلبي ظنوني
فتهاويت بين ظلماء يأسي اتنزى بصبرى الموهون
مثل طير مرنم لايبالي والردى بين جنبه المطعون
أتنزى وفي جنوبي شوق لشعاع من الضياء الحنون
غير اني لبثت ارقب فجري وعيوني الى السراب الخئون (١)

هذه هي القصيدة اثبتناها كلها لشعورنا انها تشكل وحدة متكاملة لصورة

(١) الديوان : قصيدة رحلة في الظلام ص٧٨ — ٧٩

التجربة القاسية التي مر بها ابراهيم ناجي . وانا احجم عن محاولة تفسير ماتوحي اليه هذه الصورة بعد ان قدمت لها بعض ما قدمت قبل تسجيلها – لانني ارى– ان محاولتنا لتصوير الاثر النفسي الناتج عن قراءة هذه القصيدة محاولة قاصرة لان فيها وفي امثالها من القصائد الرومانسية المتخفية في ثوب شفاف من الرمزية . لايكون الانفعال الا من شفة الشاعر مباشرة لان الشاعر لايصرح بكل شيء وانما هو يوحي الى القاريء بجانب من احاسيسه تاركاً له ان يشاركه في تصوير هذه الاحاسيس بل وصنعها (١) . وعلى اية حال فان مايتراءى لنا من صور المقطع الثاني من القصيدة – حيث يرتفع الاثر النفسي للشاعر ويبلغ قمته –يكفي ليقفنا على مدى ماتوحي اليه صورة هذه القصيدة من حالة الشاعر في يأسه وثورته ، وداعته وحدته ، ضعفه وقوته ، وفي وضعه النفساني المتأزم . ومن هذه الصور الموحية على سبيل المثال .

(العواء المخيف) (هدير الامواج) (عصف الرعب) (الوحدة الخرساء) (الفضاء الجهوم) وكثير غيرها توحي الى مدى عمق المأساة التي عاناها الشاعر ، في لحظة من لحظات تذكر حبه العاثر .

اما الخريف فقد صور به الشاعر ما انطبع في نفسه من شعور بالضياع . ضياع العمر بضياع الحب ، فاذا به يتحدث عن (جفاف الروض) و (الظلال القاتمات) و (الغيوم) و (موت الروض) وغيرها من الصور الجزئية التي ما أن تتآلف حتى تشكل صورة الرجل الحزين الذي يشعر بدنو الاجل ، وانتهاء رواية الحب المحقق وانظر اليه كيف يخلع على الخريف من يأس حاله وضنى قلبه ، وشعوره بالهزيمة ، بل شعوره بالموت ، مايوحي الينا ان هذا الشاعر كان يشعر ان الخريف يتسع لنفسه المعذبة المهزومة . وهذا مايؤكده محمد غنيمي هلال حين يقول متحدثا عن الشعراء الرومانتيكيين (فمن بين فصول السنة يفضلون الخريف لانه يتفق ونفوسهم الآسية .... وفيه تتجرد

(١) انظر : احمد المعتصم بالله ناجي ص٤١ .

الغصون من اوراقها وتعصف الريح بالاوراق الجافة ويقف نبض الحياة في الاشجار وهذه المناظر توحي بالذبول والتحلل والفناء) (١) ونحن مهما حاولنا ان نفسر اثر هذا المظهر الطبيعي في نفس ناجي فلن نصل الى ماوصل اليه بقوله عن الخريف :

ياكنار الروض في ايك الهوى ... جفت الروضة من بعد النديم
حل بالايك خريف منكـر ... وظلال قاتمات وغيـــوم
ماتت الروضة الا طائفـا ... من هوى حي على الذكرى يقوم
فاذا انكر ماحـل بهـا ... فر يبغي سربه بين النجوم (٢)

واذ كانت صورة هذه المظاهر من الطبيعة قد عكست نظرة الشاعر المتشائمة الى الحياة وهو جانب اسود قاتم ، فان هذا لايعني ان الطبيعة " لم تمد إلى شاعرنا يد الامل ، فتنفث في روحه من سحرها وجمالها وعطرها مايجعلنا نتصور احياناً يفيق من هذا الحلم الثقيل، الذي حول شاعرنا انسان متشائم لايعرف الامل ، ولايفتح صدره للحياة المشرقة الجميلة . نعم لقد لمسنا في شاعرنا حبه للحياة احياناً ، لان قلبه معلق بحبه الاول . ولذلك وجدناه احيانا يقاوم اليأس ويثور ويتمرد .. اليس هذا بسبب الحب ؟ واجمل مافي الحياة هو الحب ؟ واذن فقد حركه تعلقة بالحب ان يفتح صدره لجمال الحياة وسحر الطبيعة وها هو ذا ينظم قصيدة نستشف من عنوانها هذا الامل . وهي قصيدة (نسمة الفجر) . وفيها يبدو شاعرنا شديد الامل كثير الحيوية ، ناصعا كالنور حالما بالحب يتنقل في احضان الطبيعة بين سهولها وبحارها . وتتعلق عيناه باحلام الربيع وعطرد وطله ، وهو في كل هذا يحلم بالفجر وبالخلاص ليصل إلى شاطيء السعادة كما يقول :

هبـي كانفاس العطـور ... وتـخـطري فـوق الصخـور
كتخـطـر النغـم المخ ... لـد فـي قـرارات الشـعـور

(١) الرومانتيكية : ص١٧٣ .
(٢) الديوان : من قصيدة الخريف ص٩٢

كالنور هفافا يبدا عب حالما موج الغدير
هبي على القفر الجديـ ب على السهول على البحور
ردحا تعانق كل ما تلقاه طاهرة الضمير
وتوحد الكون الكبيـ ر بحبها العنف الكبير
وتثير في القلب المعذ ب فرحة الطفل الغرير
دوري باحلام الربيـ ع وعطره في الافق دوري
وتناثري فرحاً واحلاما على الروض الشجير
كتناثر الطل الوديـ ع على مويجات الاثير
يازفرة الفجر الوليـ د وغنوة الروض النضير
نامي منعمة علـى ارجوحة الافق الوثير
واذا ترامى الفجر اضـ واء على العشب الصفير
دوري ودوري غنوة جمعت ترانيم الدهور
ولهن اذا جاء المسا ء سعيدة عند البكور (١)

هل رأيت قوله (فرحة الطفل الغرير) و (احلام الربيع) و (الفجر الوليد) و (غنوة الروض النضير) ثم كلماته (الفجر ، الغنوة) و(النور) (العطور) اتراها توحي الى غير ماقلنا ؟ لست اعتقد . بل اجزم بان هذه الصور الحية . المليئة بالحياة والحركة ، والمجسدة للامل والمشرقة لنور الفرح . هذه الصور مع ماتمتلكه من ايحاء جميل . وما احدثه وقع موسيقاها الراقصة السهلة الخفيفة . ونغمها الحلو الجميل . هذا كله لايوحي الا الى مارانا من امل الشاعر وحبه للحياة التي لم يستطع شاعرنا الحزين ان يحققها ولو الى حين :

التأمل :

(واذا كانت ظروف الحياة والاحداث التي عاش في ظلها شعراء ابولو قد جعلتهم ينطوون على انفسهم ، ويعبرون عن تجاربهم الذاتية ، في الحب

---

(١) الديوان : قصيدة نسمة الفجر ص١٧٤

والالم . ويتخذون من الرموز وسيلة للتعبير عما يستقر في عقلهم الباطن من انطباعات . فان هذه الظروف نفسها دفعتهم ايضاً الى التأمل العميق . ليحاولوا الفكاك من قبضتها . او التماس مخرج يخلصهم من هذا الظلام الذي يعيشون فيه) (١)

وناجي يحاول في تأملاته ان يتساءل عن الحياة والاحياء والحب والزمن والكون . ويلجأ في كل ذلك الى مظاهر الطبيعة لانها مظهر حي ومشاهد تثير الخواطر . وتشحذ التفكير في العالم والكون والحب والحياة .

وهو في كل وقفة يحاول ان يجد لغزا للحياة وفهما للطبيعة وحلا لمسألة الحب، واجابة تشفي تساؤلاته عن وجودنا وبقائنا . وغالبا مايجري تأملاته في مظاهر الطبيعة التي يستوحيها قلقه والمه وشكه وتمرده واستسلامه . فهو مثلا يلجأ إلى البحر ليبثه شجونه ، ويشكو اليه حاله ، وكيف ان المقادير تعبث به ، والليالي تمزقه فيقول :

انما يفهم الشبيه شبيهـــا ... ايها البحر نحن لسنا سواء
انت باق ونحن حرب الليالي ... مـزقتنا وصيرتنا هبـــاء
انت عات ونحن كالزبـد الذا ... هب يعلـو حينا ويمضي جفاء
وعجيب اليك يممت وجهـي ... اذ مللت الحيـاة والاحيـاء
ابتغي عندك التأسي وما ... تمسك ردا ولاتجيب نـداء (٢)

وهو يستوحي الغروب للتعبير عن انقضاء العمر وانتهاء رحلة الحياة وهو فيها مستسلم يؤمن بقضاء الله وقدره :

يـافؤادي ما ترى هذا الغروب ... ماترى فيـه انهيـار العمـر
ماترى فيه غريقاً ذا شحوب ... يتلاشى في خضم القمـــدر (٣)

---

(١) عبد العزيز الدسوقي : جماعة ابولو ص٤٤٢
(٢) الديوان : من قصيدة خواطر الغروب ص٤١
(٣) الديوان : من قصيدة الخريف ص٩٣

اما الخريف فيعني عنده ، غروب الحياة ويبدو شاعرنا من خلاله متعطشا للحب وكأنه يشعر بالغربة ، فيتخذ من هذا الفصل سببا للهروب من هذا الفراغ . ولكي ينجو من غربته يلوذ بحبه ، وهو نوع من الفرار إلى الطفولة وايامها . ومن هنا ارتبط عنده الحب بالزمن والحب عندما يرتبط بالزمن يكون ابديا لايموت ولاينتهي .

مر يومي فارغا منك ومن ... امل اللقيا فما اتعس يومي
انت يومي وغدي انت وما ... من زمان مر بي لم تلك همي
آه كم اغدو صغيرا ، حاجتي ... لك كالطفل إلى رحمة ام
ولكم اكبر بالحب الى ان ... اغتدي مستشرفاً افاق نجم (١)

(وهكذا كان الحب عند ناجي ملاذا من الغربة .. لان فيه معنى الفرار إلى ايام الطفولة ايضا والوقوف من المحبوب موقف الطفل من امه يرتمي في احضانها فيجد الامن والطمانينة) (٢) .

وفي تأملاته يستجلي ناجي بعض صور الحياة وموقف الانسان منها .

لكنه غالبا مايستسلم في تأملاته إلى القدر (فالحياة عباب والانسان يطفو فوق مائة لاحول له ولاقوة :

انما الدنيا عباب ضمنا ... وشطوط من حظوظ مزقتنا
ولقد اطفو عليها قلقا ... غارقا في لحظة قد جمعتنا (٣)

وناجي في تأملاته فضولي يتساءل ويستفسر عن الحياة ومعناها والكون واسراره والليل والغازه ولكن فضوله لاينتهي الى شيء ومن هنا فقد صاحبته الحيرة في اغلب تأملاته ، وخاصة مايتعلق بكنه الحياة والكون والطبيعة

---

(١) الديوان : من قصيدة الخريف ص ٩٣
(٢) ماهر حسن فهمي : السنين والغربة ص ١٢٥
(٣) الديوان : من قصيدة الخريف ص ٩٥

سيـــان ماالجهـــل او اعـلم مـن غامض الليل ولغز الحياة
سيستمر المسرح الاعظـــم روايـة طالت واين الستـار

فهو هنا جبري يؤمن بالقدر، اذ الحياة عنده رواية كتبت فصولها دون تدخل منه. ولعله في هذا قد تأثر بافكار ايليا ابي ماضي وعبد الرحمن شكري ولقد وصلت به وقفاته أمام الدنيا واسرارها إلى التشكك .

عييت بالدنيا واسرارهـــا وما احتيالي في صموت الرمال
انشد في رائع انوارهـا رشدا فما اغنم الا الضلال

ثم انه متشائم ايضـــاً :

انظر الى شتى معاني الجمال منبثة في الارض او في السماء
الاترى في كـل هذا الجلال غير نذير طالـع بالفنـاء ؟ (١)

وهكذا يبدو شاعرنا في تأملاته، متشائماً متشككا جبرياً خائفاً . ويؤكد هذا قوله وهو يتساءل :

والام تدفعنـا الحـــوا دث في عباب يلتطـــم
دفعت بموكبنا المقـــاد يـر الخفيـة والقسم (٢)

وقـــولـــه :

ياحبيبي كـل شيء بقضاء مابايدينـا خلقنـا تعســاء
ربمـا تجمعنـا اقدارنـا ذات يـوم بعـدما عز اللقـاء

او قـــولـــه :

ولكـم صاح بي اليأس انتزعها فيرد القـدر الساخر دعيها (٣)

ويحتل الحب في تأملات ناجي مكانا رفيعا . وبه يتجلى كثير من مواقفه ازاء الحياة . ففي الحب يجد الطمأنينة ويستسلم إلى الراحة :

---

(١) الديوان : من قصيدة الحياة ص١٨٥ - ١٨٦
(٢) الديوان : من قصيدة ليالي الارق ص٢٩٥ .
(٣) الديوان : من قصيدة ملحمة الاطلال ص٣٤٦ .

هذه الدنيا هجير كلها　　اين في الرمضاء ظل من ظلالك
ربما تزخر بالحسن وما　　في الدمى مهما غلت سر جمالك(١)

وفي رأي ناجي ان الحب هو السر في تعلقه بالحياة :

يافوادي العمر سفر وانطوى　　وتبقت صفحة قبل النوى
ماالذي يغريك بالدنيا سوى　　ذلك الوجه وذياك الهوى (٢)

وهكذا يرتبط الحب بالحياة ارتباط الروح بالجسد . وهذا ماعبرت عنه تأملاته في الكون والحياة .

وفي تأملاته امام مظاهر الطبيعة لاتستطيع احياناً ان تجد صورتين احداهما للشاعر ونفسه . والاخرى لمظهر الطبيعة ، انما انت امام صورتين في صورة واحدة :

صورة للبحر ام صورة نفس　　عندما النفس من اليأس تثور
قد علا الموج وقد عز التأسي　　لم يعد الاعباب وصخور (٣)

مسائل فنية :

من خلال استقراء قصائد ناجي نستطيع ان نميز شعره بثلاث مسائل فنية هي صدق العاطفة، ودقة التصوير، وروعة الموسيقى واولى هذه المسائل : عاطفة رقيقة (لاتحتمل العنف وشدة الضغط) (٤) كما يقول طه حسين . وهذه العاطفة ينفرد بها شاعرنا انفرادا عجيباً . دعت محمد مندور إلى ان يحكم على شعره كله من خلالها فيقول انه (قصيدة غرام) . كما يقول محمود حامد شوكت (ان حرارة العاطفة ميزة ظاهرة في شعر ناجي) (٥) .

---

(١) الديوان : من قصيدة الخريف ص٩٤
(٢) الديوان : من قصيدة الخريف ص٩٦
(٣) الديوان : من قصيدة عاصفة ص١٨٤ .
(٤) انظر حديث الاربعاء ١٥١/٣
(٥) مقومات الشعر العربي ص٢٥٥

ودعت ابراهيم المصري بأن يرى ناجي (بالعاطفة يعيش ومن العاطفة يستلهم وفي سبيل الاحساس بالعاطفة وتصويرها يضرب في مناكب القاهرة ليلا ويغشى انديتها وملاهيها ويفرح ويهلل ويضحك ويبكي) (١) .

ويبالغ ابراهيم المصري في اثر العاطفة عند ناجي ، فيعزو اليها كل ما يشعر به من سعادة وتشاؤم وشعور بالالم . (والحقيقة ان شدة احساس ناجي بالعواطف الرقيقة هي التي تضاعف شعوره بالالم عندما يعترض طريقه مشهد مؤثر او فاجعة رهيبة أو مجرد سماع انسان يشكو أو آخر يستجدي أو ثالث يتظاهر بالسعادة وفي عينيه أثر من مجاهدة الدموع . وهذا هو السر في تشاؤم ناجي وفي ازمات التمرد والسخط التي تنتابه) (٢) .

أما أحمد هيكل فيرى ان عاطفة ناجي (عاطفة صادقة اولا لانه قد عاش كل تجاربه التي عبر عنها . ثم هي عاطفة مشبوبة ثانياً لانه قد أحس تجاربه بكل كيانه واخيراً هي عاطفه انسانية سمحة) (٣) .

وتحكم نعمات أحمد فؤاد على ناجي فتراه (رقيقاً فياض العاطفة) (٤) .

ويراه أحمد المعتصم بالله (شاعر الوجدان الذاتي) (٥) .

وهذه العاطفة التي ينفرد بها ناجي هي التي دعت صديقه الشاعر صالح جودت الى ان يطلق عليه (شاعر الرقة العاطفية) (٦) .

واما عبدالعزيز الدسوقي فيكتب عن احدى قصائده فيراها (انفجارات عاطفية حارة تسبح في جو من الرومانسية الحزينة) (٧) .

---

(١) صوت الجبل ص٤٠

(٢) المصدر نفسه ص ٤١.

(٣) مقدمة الديوان ص ٣٢.

(٤) ناجي الشاعر ص ٤١.

(٥) انظر كتابه : ناجي شاعر الوجدان الذاتي.

(٦) انظر بحثه : بلا بل من الشرق .

(٧) جماعة ابولو : ص ٣٨٧.

ولهذا الاجماع دلالته الكبيرة التي لاتدع أي شك يتسرب الى الحكم على عاطفته الرقيقة التي صدح بها كل شعره .

واذا كانت ميزة شاعر على غيره لاتتم الا من خلال صدق التجربة وان هذه التجربة لايمكن ان تقوم الا بما يدفع اليها من العواطف الانسانية ، فان شعر ناجي حمل في اغلبه هذه العواطف التي جعلت من صاحبها شاعراً لينا هينا رقيقا كما يرى ذلك طه حسين .

والحق ان غزارة هذا الصدق العاطفي يتجلى في غنائه المتواصل بالحب والذي جاء انفجارات عاطفية يبالغ الشاعر في تصويرها حتى انه ليحقق فيها اتجاهاً انسانيا مثاليا يجسد فيه معنى الحياة في صورته المثالية حين يقول :

ذلك الحب الذي علمني ان احب الناس والدنيا جميعاً
ذلك الحب الذي صور من مجدب القفر لعيني ربيعا
انه بصرني كيف الورى هدموا من قدسه الحصن المنيعا
وجلالي الكون في اعماقه اعينا تبكي دماء لا دموعا(١)

واذا عرفنا من حياة ناجي انه كان شخصا رقيقاً وديعا يحب الناس ويعطف على المنكوبين ويقدس الحب من اجل الحب ، تأكد لنا صدقه وتجلت لنا عاطفته في هذا الحب .

والحق ان ناجي لم يكن شاعرا رقيق العاطفة فحسب وانما كان يجسد هذه العاطفة بالتجربة الصادقة التي لم تكن تفرض على الشاعر ابدا وانما كانت تتبع ممارسة أدت اليه في كثير من الاحيان ان يقع صريع ذلك الحب . فاذا هو يبكي ويشكو وتتأزم نفسه وتشتد عاطفته كما هو الحال في قصيدة (رسائل محترقة) التي تمثل تجربة حب عاثر جعله يجهز في حالة من حالات تأزمه النفسي على رسائل حبيبته فيحرقها ويحرق معها قلبه :

---

(١) الديوان : من قصيدة ظلام ص ٦٩ .

ذوت الصبابة وانطوت وفرغت من آلامها
لكنني ألقى المنايا من بقاياها جامها
عادت الي الذكريات بحشدها وزحامها
في ليلة ليلاء ارقني عصيب ظلامها
هدأت رسائل حبها كالطفل في احلامها
فحلفت لارقدت ولا ذاقت شهي منامها
اشعلت فيها النار ترعى في عزيز حطامها
تغتال قصة حبنا من بدئها لختامها
احرقتها ورميت قلبي في صميم ضرامها
وبكى الرماد الآدمي على رماد غرامها (١)

ان هذه القصيدة التي ساقها شاعرنا في جو قصصي وثاب، يغلفه رمز شفاف يوحي به الشاعر لتجسيد اعماق حالته النفسية المتردية وهو يحرق شيئا عزيزاً عليه، هذه القصيدة تمثل تجربه عاشها الشاعر بعمق الوجدان ودفعت اليها عاطفة صادقة وهذه العاطفة ليست تعبيراً اعتيادياً عن صدق المشاعر لتأكيد التجربة الشعرية العميقة فحسب وانما هي تعبير من نوع خاص يجسد حالة التأزم النفسي التي مرت بالشاعر في احدى حالات اليأس ودفعت به إلى التمرد على اعز مايمتلك والا فهل يمكن للمرء ان يتصور اقدام شاعر الحب على تحطيم هذا الحب والعبث به ؟ لاأتصور ذلك .

ويطيب لي ان اسجل — قصيدة : « قلب راقصة » تأكيداً لهذه العاطفة التي يراها بعض النقاد تمثل عاطفة انسانية — لاؤكد على صدق تجارب شاعرنا تلك التجارب التي انتزعها من الحياة ... حياته هو ، حين كان يجوب الشوارع ويرتاد الملاهي ، ويرى ما فيها من صور الحياة الانسانية التي شدت نفسه اليها شدا عنيفاً ، بحيث صارت عنده موضوعاً حياتياً تجسد في هذه القصيدة

(١) الديوان : من قصيدة رسائل محترقة ص ٢٨٢.

التي اسماها (قلب راقصة) والتي يحكي فيها تجربة حقيقية وقعت له في احدى الليالي ، وكان يشكو ضيقاً ويعاني سأماً حادا من الحياة ويضطره ذلك الحال إلى ان يدخل ماهى للرقص فيصف ما فيه ويصف رواده وحالتهم وتوثبهم . ثم يغري نفسه بمحاكاتهم ويحدثها فيقول :

انظر إلى السيقان عارية ... وترى الخصور ضوامرا تغرى
وتجد عيون اللهو جارية ... فهناك الحياة وانت لاتدرى

ثم يحكي ما جرى له مع غادة في الملهى بعد انتظار لها حتى آخر الليل واعتذارها له ووعدها بلقياه . حتى اذا حان موعد اللقاء في اليوم التالي وصدق ما وعدت به قال :

وهممت بعد اليأس ان أمضى ... فاذا بها تختال عن بعد
ميزتها بشبابها الغض ... وبقدها الفديه من قد

ياللقلوب لملتقى اثنين ... لايعلمان لايمأ سبب
جمعتها الدنيا غريبين ... فتالفا في خلوة عجب

عجباً لقلب كان مطعمه ... طرباً فجاء الامر بالعكس
واشتد ما في الكون اجمعه ... بين القلوب اواصر البؤس

من أنت يامن روحها اقتربت ... مني وخاطب دمعها روحي
صبته في كأسي وما سكبت ... فيه سوى أنات مذبوح

عجباً لنا في لحظة صرنا ... متفاهمين بغير ما أمد
يامن لقيتك أمس هل كنا ... روحين ممتزجين في الابد

هـاتي حـديث السقم والوصب وصـفـي حقـارة هـذه الدنيا
اني رأيـت أسـاك عـن كثب ولمسـت كـربـك نابضاً حيا

* * *

لاتكتمـي في الصدر اسرارا وتحـدثي كيـف الأسى شاء
أنا لاأرى اثمـاً ولا عـارا لكـن ارى امـرأة وبأساء (١)

* *

وبعد ان يتحدث عن حالها ويصف أساها من مشاعرها ، ويأسى لما رآه من فيض عينها ، وقد اشفق عليها مما هي فيه ، ويصف مشاعر حزنه وكلها أسى ولوعه . ومنطلقه في كل هذا مبدأ انساني لايرى في تلك المرأة عنواناً للدنس وانما ينظر اليها على انها ضحية قدر شؤوم القاها في احضان (خوانين انذالا) .

والحق اننا يمكن ان نرجع هذه النظرة الانسانية الى (النزعة الرومانسية المتأثرة بالاتجاه الذي أشاعه فكتور هوجو في غادة الكاميليا والذي يرى ان المرأة مخلوق بائس ضعيف . وانها اذا سقطت فنحن والمجتمع مسؤولون عن هذا السقوط) .(٢)

وفي هذه القصيدة التي لم يتسع المجال لاثباتها برمتها لطولها (نحس بروعة التجربة الانسانية التي خاضها ناجي في قلب تلك الراقصة كغيرها من الراقصات اللائي يعشن في اضواء صناعية وقلوبهن تخفق في ظلام ليل لايأملن في انقضائه . وفي القصيدة نلمح الانسان الشاعر ، فهو لم ينظر الى الراقصة نظرة عبث ولهو ولكنه ينظر اليها كانسانة تقاسي اعنف الالم بينما هي

(١) الديوان : من قصيدة قلب راقصة ص ٢٦٧ .
(٢) محمود حامد شوكت ورجاء محمد عبد : مقومات الشعر العربي الحديث المعاصر ص ٢٥٣ .

تضحك وتبيع السرور والوهم . فناجي شاعر الوجدان الذاتي لايقصر مطلقاً في ان يحيا في تجارب الآخرين كاعمق ماتكون الحياة . وحتى لتصبح تجربة الراقصة هذه هي احدى تجارب الشاعر الذاتية ، وحتى ليبدع في وصف مشاعر تلك الراقصة وكأنه أحس هذه المشاعر ذاتها وعاناها معاناة حقيقية) . (١)

والحق ان هذه القصيدة لاتؤكد الرقة العاطفية التي اتخذت لها مساراً انسانياً لدى شاعرنا فحسب ، وانما تؤكد ان الشاعر كان ينسج تجاربه من حياته وحياة غيره من الذين تجمعه واياهم قسوة الظروف وعثار الايام . وهذا مادعى الشاعر المرهف (احمد زكي ابو شادي) لان يميزها بالروح الانسانية الرفافة . بينما قال عنها السحرتي (ان هذه القصيدة رائعة في عواطفها وانفعالاتها المتنوعة). (٢)

ولعل مما يغري الباحث ان يتمثل به صدق العاطفة وشبوبها قصيدة الاطلال والتي نقتطع منها جزءاً واحداً من اربع وثلاثين جزء يقول فيه :

ياغراماً كان مني في دمي قدراً كالموت او في طعمه
ماقضينا ساعة في عرسه وقضينا العمر في مأتمة
ماانتزاعي دمعة من عينه واغتصابي بسمة من فمه
ليت شعري اين مني مهربي أين يمضي هارب من دمه (٣)

او ان يتمثل الباحث جزءاً بسيطاً من قصيدة (العودة) التي اجمع الدارسون والنقاد على روعتها وخلودها ، والتي قال عنها محمد مندور ، (انها من روائع النغم في الشعر العربي الحديث) . (٤)

---

(١) أحمد المعتصم بالله : ناجي ص ٣٩.
(٢) مصطفى السحرتي : الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث : ص ٢٤ .
(٣) الديوان : قصيدة ملحمة الأطلال، ص ٣٤١ – ٣٤٧.
(٤) الشعر المصري بعد شوقي ص ٦٠ .

وهي قصيدة صور فيها ناجي احاسيسه بعد ان عاد الى دار حبيبته فوجدها قد تغيرت فقال فيها :

هذه الكعبة كنا طائفيها والمصلين صباحاً ومساء
كم سجدنا وعبدنا الحسن فيها كيف بالله رجعنا غرباء

* * *

دار احلامي وحبي لقيتنا في جمود مثلما تلقى الجديد
أنكرتنا وهي كانت إن رأتنا يضحك النور الينا من بعيد

* * *

رفرف القلب لجنبي كالذبيح وانا اهتف ياقلب اتئد
فيجيب الدمع والماضي البعيد لم عدنا ليت انا لم نعد

* * *

لم عدنا او لم نطو الغرام وفرغنا من حنين وألم
ورضينا بسكون وسلام وانتهينا لفراغ كالعدم (١)

وفي هذه القصيدة يستطيع الشاعر ان يؤكد لنا عمق ممارسته لتجاربه في الحياة ، وهي تجارب خاضها بنفسه وعاشها بوجدانه ونسج كلماتها من نبض قلبه ، لان ملهمتها كما يقول صالح جودت وغيره ، هي حبيبته الاولى . وكان قد عاد الى داره بعد غياب طويل فوجدها قد تغيرت حالها وتبدلت معالمها ، لكن قلبه لم يكن يتغير وعاطفته الرقيقة لم تجف . والحق ان شعر ناجي من اشد الشعر العربي الحديث تجسيداً لممارسة التجربة وصدقها . وهذا مايجعلنا نلقي الضوء على هذه الناحية من شعره لكي نحفظ لأدبنا الخالد صورته ونحتفظ له بصوت صاحبه .

تلك كانت الناحية الاولى التي قلنا ان ناجي انفرد بها دون غيره . فأما الناحية الثانية فهي الصورة ، وقد اجمع اغلب الدارسين ايضاً على روعتها

(١) الديوان : من قصيدة العودة ص ٣٩.

في شعر ناجي . حتى قال عنها احمد هيكل انها (حية نابضة نامية يحسن غالباً مزج الوانها وتوجيه خطوطها وتركيب عناصرها . وربما كانت الصورة عنده اهم واقيم وسائله التعبيرية . فهو فيها فنان مبتكر أولا ورسام بارع ثانياً . وبناء يعرف كيف يركب هذه الصور آخر الامر) . (١)

ويقول احمد المعتصم بالله عن صور ناجي : (وقد تتفاوت صور ناجي في الوسامة والوضوح والالوان والمظاهر . الا ان صفة واحدة تغلب عليها جميعاً . وهي انها صور حية نابضة) . (٢)

والتصوير عند ناجي يمثل تياراً جديداً ، لانه قد هجر به الاسلوب المباشر الذي وجدناه عند شوقي وجيله . فهو اذن يعتمد على الايحاء . اذيختفي خلف ثوب شفاف من الرمزية والسبب فيما نرى عمق انفعاله بتجاربه . بحيث لم تعد اللغة المباشرة تكفي لتصوير ذلك العمق . واستخراجه من مكنون النفس . اما الرمز فباستطاعته ان يوحي الى الشيء المطلوب الذي اشرنا اليه . اما السبب الآخر فهو اطلاعه على الادب الغربي وتأثره به . ومعروف ان ناجي (قد اتصل بالرمزيين عن قرب .. وترجم ديوان بودلير (ازهار الشر) . (٣) كما انه قرأ لشعراء الديوان وشعراء المهجر وتأثر بهم . وهذه اسباب تقوم كلها دليلا على ان شاعرنا قد سلك الرمز متأثراً من ناحية ، واصيلا من خلال تجسيد تجاربه العميقة التي لاتقوى اللغة الاعتيادية على ابرازها من ناحية اخرى ومهما يكن من امر هذا التعبير فان الذي يهمنا . كيف كان ناجي يؤدي صوره ؟

لعل أول ما يلفت نظرنا في تصوير ناجي هو تشخيص المعاني تشخيصاً حسياً تشعر معه انك بازاء أنسان . وانظر اليه كيف يجسد الشوق بقوله :

---

(١) مقدمة الديوان ، ص ٣٤ .
(٢) ناجي شاعر الوجدان : ص ٦٥ .
(٣) أحمد المعتصم بالله : ناجي ص٦٤ .

ومن الشوق رسول بيننا وندیم قدم الكأس لنا

فالشاعر هنا منح الشوق صفة الانسان الذي يمشي ويتحرك .

واذا تحدث عن حبيبته ذكر رسائلها فشبهها بالطفل لانها عزيزة لديه ويرعاها كما ترعى الام طفلها . فيقول :

هدأت رسائل حبها كالطفل في احلامها

فحلفت لارقدت ولا ذاقت شهي طعامها

أشعلت فيها النار تسعى في عزيز حطامها

والابيات كما مر – تختفي وراء ثوب شفاف من الرمز لم يحل لشاعرنا ان يقدم قصة حبه مع الحبيبة إلا عن طريق الايحاء بمشاعره العميقة. ولعل من اشد المعنويات التي خصها ناجي بالتجسيد . كل ما عبر عن الهم والالم والحزن . وغالباً ما يجسده شيئاً قاسياً مخيفاً معتدياً .. فالحزن له دمع أبدي يسقي . الزهرة :

وترى في عمق روحي زهره قد سقاها الحزن دمعاً ابدياً

ولعل هذه الزهرة هي الحبيبة لانها قد ارتبطت بالحزن وبالدمع .

ومن تأثر ناجي بالرمزيين استخدام (الوصف المعتمد على العلاقة بين الحواس بخاصة . فهو يصف كثيرا المرئي بما يوصف به المسموع ، وينعت المسموع بما ينعت به المشموم ، ويخلع على المشموم ما يخلع على الملموس ثم هو يصف المحسوسات بصفات المعنويات والمعنويات بصفات المحسوسات) .

(١) وها هو يجعل للصمت جناحين فيضفي عليه الحركة فيقول :

رفرف الصمت ولكن اقبلت من اقاصي السهل اصداء بعيدة

وذلك في تصوير نفسه بالضيق وشعوره بالضياع .

وفي البيت التالي جعل للشعاع ماء وللظلال ضفافا :

وشعاع طوفت في مائه وظلال رسبت في ضفافيه

(١) مقدمة الديوان : ص ٣٥.

وذلك في تعبيره عن الراحة والطمأنينة . وحين يبالغ في انينه وشكواه يجعل للظلام صدراً يضيق بتلك الحال :

كأن صدر الظلام ضـــاق من كثرة البث كـــل حيـــن
ياويحه كيف قد اطـاق شكوى البرايا على السنين (١)

ولشاعرنا اوصاف غريبة كأوصاف الرمزيين تماماً ، فالزمن يطول عنده ويقتصر حسب الوضع النفسي لحالته . فاذا عبر عن تعلقه بالحياة جعل الثواني – على قصرها – رحبة تتسع له ولحبيبته :

انا ان ضاقت بي الـدنيـا لثوان رحبـة قد وسعتنـــا

واذا تحدث عن الدنيا وسعتها ، جعلها عباب يطفو هو فوقه :

انما الدنيـا عباب ضمنـا وشطوط من حظوظ فرقتنا
ولقد اطفوا عليه قلقـــا غارقاً في لحظة قد جمعتنا(٢)

وهكذا يجعل الحظوظ شطوطاً ايضاً .

واذا عبر ناجي عن وضع نفساني مرهق جد المعاني الفاتا للنظر وتجسيد للحالة النفسية كقوله :

السراب الخئوون والصحراء والحيارى المشردون الظماء

وكقوله :

يطلع مرهقاً شاحب النـــو ر عليه الكلال والاعيـــاء
وبنفسي دب المساء وحل الليل من قبل ان يحين المساء (٣)

اما إذا تحدث عن (رحلة في الظلام) فان صوره غالباً ما تتلفع بالقتامة . وحالته لابد ان تنبيء بالتشاؤم . ومن هنا جاءت صورة بعيدة عن المباشرة. وانما هي تنبيء وتوحي . بل انها لتحليل القارىء إلى ظلال العبارات والصور

---

(١) الديوان : من قصيدة الليالي ، ص ٢٩٠.
(٢) الديوان : من قصيدة الخريف ، ص ٩٥ .
(٣) الديوان : من قصيدة ملحمة السراب ، ص ٥٦.

بحيث تستطيع من خلال هذا كله ان تشيع جوا من الرهبة والخوف لتعبر عن قسوة التجربة التي يمر بها الشاعر ، ولا يستطيع لها رداً بل انه لايستطيع — بعد ان عجزت لغته الاعتيادية — كشف حاله المحطمة ونفسه المتعبة الثقيلة الا بهذا الايحاء الذي يحدث اثرا نفسياً غامضاً .

ونحن نعتذر عن ايراد الابيات فقد سبق ان تمثلناها في صفحات سابقة(١) ولكننا سنسجل هذه الصور الغريبة التي اوحت بالحالة النفسية التي مر بها شاعرنا في تجربته القاسية ومنها :

(عويل الرياح) و (العواء المخيف) (هدير الامواج يعصف كالرعب) (الفضاء الجهوم قبر ساخر) ولا شك ان هذه الصور فيها من القسوة والجفاء ما يوحي إلى نفس أنهكتها عوادي الزمن وعدت عليها عواصف السنين .

والحق ان (شعر ناجي مفعم بتلك الاوصاف الجديدة القائمة على طبيعة العلاقة بين الحواس ... ونرى في شعره امثال (الطعنة المجنونة) و (الليل الضرير) و (السراب الخئون) و (اللانهاية الخرساء) و (الامالي البيض) و (الهوى المجروح) و (المغرب الباكي) و (الخصر الجائع) . (٢) وهذه الاوصاف كلها اوصاف رمزية توحي بالشيء ولا تسميه.وهذا الايحاء هو وحده القادر على كشف الاحاسيس العميقة . ولكنه لايوحي إلى القارىء بكل هذه الاحاسيس ، وانما يترك له ان يتخيل ويتصور ويشارك الشاعر في هذا التصور ولعل ما في الصورة التالية من ايحاء يحملنا على ان نحكم على عمق تجارب الشاعر على انه كان يعيشها بحرارة العواطف ورقة المشاعر وعمق الوجدان .

والذي يلاحظ على التصوير بالرمز لدى شاعرنا أن اغلبه جاء تجسيدا لحالات التأزم النفسي والشعور بالضياع والتعبير عن التشاوم المفرط . من ذلك قصيدة. (رحلة في الظلام) التي اشرنا اليها واوضحنا ما فيها من رمز شفاف والابيات

(١) القصيدة بعنوان رحلة في الظلام : الديوان ص ٧٨.
(٢) مقدمة الديوان ص ٣٥ — ٣٦.

التالية يمكن ان توضح هذا الاتجاه ، وقد جاءت لتجسيد وضع الشاعر المتأزم:

نزل الظلام فلات حين مقامي ... لم يبق غير مدامعي وسلامي
هبط العقاب على الديار ولفني ... في جنحه وأظلني بقتام
والسيل قد غمر المدائن والقرى ... وطغى كما يطغى العباب الطامي
نفسي تحدثني بأني مغرق ... لاحول لي في لجه المترامي
فلأى أرض بعد انقل متعباً ... قدمي واحمل هيكلي وعظامي
ضاقت علي الارض وهي مفازة ... فوق امتداد الظن والاوهام
سكنت سكون القبر ثم تناوحت ... فيها الرياح كساهر بسقام
ثكلى اذا أنت أحس كأنها ... راحت تدوى في صميم عظامي(٣)

ونحن هنا بازاء تجربه قاسية تعكس شعور الرجل بالخوف والهلع ، واحساسه بالضياع والتيه والضيق والارهاق والالم ، ثم الاستسلام ، وجاء هذا الشعور من العمق بحيث لاتستطع معه اللغة الاعتيادية ، ان تحقق رغبتنا في مشاركتنا الوجدانية له .

ومن هنا لجأ الى هذا الرمز الشفاف ليلقي الينا ببعض مايحس تاركاً لنا ان نستشف من وراء تلك الاوصاف والالفاظ ، مايحقق لنا المشاركة بل لنحقق اللذة والمتعة بذلك الاستكشاف . وهذا هو هدف من اهداف التعبير بالرمز الرومانتيكي . واذا كان مثل هذا الاسلوب — وهو التصوير بالايحاء — يؤكد نزوع ناجي الى التجديد . فانه في الواقع لم يقف عند حدود هذه المسألة ، ذلك ان الشاعر يمتلك قدرة عجيبة على تجسيد المعنويات وانطاق مالايحس . وقد التفت الى هذه الناحية اغلب دارسيه . ولعل ذلك يتضح في تجسيده للحنين بقوله :

ويح الحنين وما يجرعني ... من مره ويبيت يسقيني
ربيته طفلا بذلت له ... ماشاء من خفض ومن لين

(٣) مجلة ابولو : مارس ١٩٣٣ ص ٧٥٤.

فاليوم لما اشتد ساعده وربا كنوار البساتين
لم يرض غير شبيبتي ودمي زاداً يعيش به ويغنيني (١)

واذا كان ؟ طه حسين قد استغرب هذا الوصف حين رأى أن (هذا المعنى نفسه يفسدها افساداً ، فالحنان يعظم حتى يملأ القلب ويغمر النفس ويؤثر في حياة الانسان فاما ان يتجسم فيصبح شخصاً ، فهذا كلام قد يفهمه الشعراء ولكن فهمه عسير على النقاد) (٢) وانه ايضاً قد استغرب تسمية الشاعر لديوانه (ماوراء الغمام) فذلك مما اخذه الدارسون على موقفه هذا . لان مافيه لايمثل الغرابة في شيء . وانما يمثل تجديداً في الافكار واستيعاباً وفهماً للاساليب الغربية الحديثة . وعلى رأسها الرمزية والرومانتيكية . وهؤلاء الدارسون وعلى رأسهم مندور السحرتي وابراهيم المصري ونعمات احمد فؤاد.لم يقنعهم ما ذهب اليه ؟طه حسين سواء موقفه من هذه الابيات ونقدها ، او من تعليقه على اسم ديوان (ماوراء الغمام) او من اعتراضه على هذه الصورة التي وصف فيها ناجي سأمه وضجره وضيقه من الحياة فقال :

أمسيت اشكو الضيق والأينا مستغرقاً في الفكر والسأم
فمضيت لاأدري الى أينا ومشيت حيث تجرني قدمي (٣)

فطه حسين يزعم (ان الشاعر المجيد لايستقيم له الاستغراق في الفكر والسأم معاً .فالمفكر لايسأم والسئم لايفكر ، لان التفكير يشغل صاحبه حتى عن الضيق والتعب والسأم ولان السأم يمكن صاحبه من التفكير ولايخلي بينه وبينه وعلى كل فقد امسى الشاعر ضيقاً متعباً مغرقاً في السأم والتفكير فخرج لايدري إلى اين ، ومضى حيث تجره قدمه . فانظر إلى هذه الصورة التي لاتلائم شعرا ولا تلائم لغة . فالقدم لاتجر صاحبها وانما تحمله متثاقلة مكدودة ان لم يتح لها

(١) الديوان : من قصيدة حنين ص ٣٢٢ .
(٢) حديث الأربعاء : ٣/١٦٥ .
(٣) الديوان : من قصيدة قلب راقصة ص ٢٦٧ .

النشاط ، وانما يجر صاحب القدم قدمه اذا خرج فاترا مكدوداً لايقوى على المشي ولكن الشاعر اراد قافية تلائم السأم فجعل قدمه تجره ، على حين كان ينبغي ان يجرها هو . فهذا النقد الجاري على منطق الفقهاء ابعد ما يكون من الفهم الدقيق لحقائق النفس البشرية ... فالسأم كما يكون نتيجة لفراغ النفس من كل فكر او احساس ، قد يكون ايضاً من اطالة التفكير واجتراره ، بل قد يكون منصباً على السأم نفسه . كما ان التعبير بالقدم التي تجر صاحبها تعبير رائع دقيق لانه يوحي بالحالة النفسية التي كانت مسيطرة على الشاعر اكبر الايحاء فهو لا يسير عن قصد واراده وهدف بل يتحرك في شبه آلية وعندئذ تجره قدمه لا العكس كما يريد طه حسين بمنطق الفقيه) .(١)

ولا شك اننا نقف مع مندور في رده والا لأنكرنا كل تجديد يفد الينا من الخارج ، ولو اننا استنكرنا هذا على رأي طه حسين لكان علينا ان نستنكر كل الشعر الذي جرى وراء الرمزيين وغيرهم ممن تأثر بهم شعراؤنا وادباؤنا

ومهما يكن من امر هذا النقد والرد عليه فان الذي جر اليه هو شعر ناجي وجدير بشعر هذا الشاعر ان يثير من حوله نقدا يتعرض لقضايا لم تكن على بال نقادنا من قبله وقبل أمثاله من جماعة الديوان .

وآخر المسائل الفنية التي نود تسجيل خواطرنا بشأنها هي الموسيقى واذا كانت الموسيقى هي احدى عناصر الصياغة الشعرية فان اول مايجب ان تتميز به هو (الانفعال) وبدون هذا الانفعال يهبط الشعر الى مستوى التقريرية والنثرية وعندئذ يخرج من دائرة الشعر الجيد .

وقد حكم الناقد مصطفى عبد اللطيف السحرتي على موسيقى ناجي بانها من النوع الذي (يمتاز باصوات ارتكازية فتجمع بين النغمات العالية والمنخفضة) . (٢)

---

(١) محمد مندور : الشعر المصري بعد شوقي ، ص ٦١ .

(٢) الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث ص ١١٣ .

وهذه الموسيقى تتنوع نغماتها بين العلو والهبوط وهي دلالة العاطفة التي ترتفع او تنخفض بناء على نوع التجربة التي تعبر عنها . ونحن نستطيع في القصيدة الواحدة ان نجد مثالا لهذه الموسيقى كقول الشاعر من قصيدة الاطلال وقد بدت عليه حالة الانفعال :

اعطني حريتي اطلق يدي انني اعطيت ما استبقيت شيء
آه من قيدك أدمى معصمي لم أبقيه وما أبقى عليّ...الخ

ثم يقول بعد هذا المقطع مباشرة :

وهب الطائر عن عشك طارا جفت الغدران والثلج أغارا (١)
هذه الدنيا قلوب جمدت خبت الشعلة والجمر توارى...الخ

فالبيتان الاولان يمثلان هذا الانفعال الشديد في لحظة من لحظات احتجاج الشاعر وتمرده ويبدو على موسيقاهما الشدة والعنف والقسوة التي دلت عليها (الشدة) — بفتح الشين — في قافية الابيات . كما دل على ذلك الملائمة التي حققتها الالفاظ والعبارات في انغامها ونبراتها مع الحالة الشعورية الطاغية التي اشرنا اليها والتي ميزت الفاظها وعباراتها بالقوة والشدة والعنف من مثل (اعطني حريتي) و (اطلق يدي) وقد جاءت بصيغة الطلب ، اوما تدل عليه كلمات (القيد) و (ادمى) و (معصم) وغيرها وهي كلها ذات نغم عال مرتفع يختلف كل الاختلاف عن النغم الهادىء الرقيق المهموس الذي تعبر عنه تعبيرات وكلمات مثل (الطائر) و (العش) و (جفت الغدران) و (قلوب جمدت) و (خبت الشعلة) و (الجمر توارى) . واذا عبرت قافية البيتين الاولين عن الشدة والقسوة — كما اشرنا — فان موسيقى البيتين الاخيرين المنتهيين بألف الاطلاق قد عبرت عن النغم الهادىء الحزين — كما اسلفنا — واروع مايمثله هذا النغم الارتكازي الواضح قصيدة العودة التي يقول في احد مقاطعها :

---

(١) الديوان : من قصيدة الأطلال ص ٣٤٤

هذه الكعبة كنا طائفيها والمصلين صباحاً ومساء
كم سجدنا وعبدنا الحسن فيها كيف بالله رجعنا غرباء

ففي هذين البيتين — كما يتضح — موسيقى ناعمة هادئة حزينة ، تسيل أس وتقطر حزنا وألماً بما تشيعه كلماتها وتوحي به صورها وهي — كما نرى تختلف عن النغم الحاد الشديد العنيف الذي تمثله ابيات المقطع الآخر الذي يقول :

رفرف القلب بحبي كالذبيح وانا اهتف : ياقلب اتئد
فيجيب الدمع والماضي الجريح لم عدنا ليت أنا لم نعد

ولا شك ان موسيقى هذين البيتين تمتلك من القوة والشدة والارتفاع مالا تمتلكه موسيقى البيتين الاولين ويكفي ان يقارن الدارس بين الفاظهما وعباراتهما وما انتهت اليه قافية كل منهما ليستدل على الفرق الذي اشرنا اليه .

واذا كانت الموسيقى تتصل اتصالا وثيقاً بالافكار وتعبر عنها بما تمتلك من نغم وايقاع وانها ايضاً (تساير موضوع القصيدة او تتوائم مع التجربة الشعرية وان خيرها كما يقول سبنسر — ما تتمشى مع التجربة الشعرية وتتساوق مع المعاني ، وتتجاوب الوان نغماتها ونبراتها مع حالات النفس (١). فان هذه لابد ان تختلف من حالة إلى حالة طبقاً للحالة الشعورية ونوع التجربة وحالاتها المختلفة ، ففي حالة التعبير عن الحزن والاسى وبث الانين والشكوى يختلف التعبير الصوتي فيكون طويلا ممتدا ذا نغم حزين ونبرات رقيقة ، وتكون الكلمات لينة هينة هفهافة وذلك كله يكون تعبيرا عن الحالة النفسية المتعبة كقول ناجي في قصيدة يأسي على كأس :

اصبحت من يأسي لوان الردى يهتف بي ، صحت به هيا
هيا فما في الارض لي مطمح ولا أرى لي بعدها شيا
ماذا بقائي ههنا بعدما نفضت منه اليوم كفيا
اهرب من يأسي لكأسي التي أدفن فيها ألمي الحيا

(١) مصطفى عبد اللطيف السحرتي : الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث ص ١١٥ .

يأيها الهارب من جنتـــي تعال او هـــات جناحيـــا
نبكي شبابينا ونبكي المنـــى وترتمي بين ذراعيـــا (١)

وهذه الموسيقى — فيما نرى — أشبه بالموسيقى الجنائزية بما امتلكت من نغم شجي حزين والفاظ رقيقة هفهافة وبما عبرت به الفاظها عن يأس الشاعر من الحياة وهروبه من الواقع من مثل (يأسي) و (نفضت) و (أهرب) و (كأسي) و (المي) و (ادفن) و (الهارب من الجنة) و (نبكي شبابينا) و(نبكي المنى) وغيرها من العبارات والالفاظ التي احتشدت لتجسد أسى الشاعر ويأسه والمه وحالته المحطمة ، ويكفي ايضاً ان تعبر هذه الابيات عن التجربة الصادقة والعاطفة النبيلة التي تميز بها ناجي في شعره .

اما في حالة التعبير عن الفرح والبهجة والسرور فيكون التعبير الصوتي سريع الايقاع وتكون الكلمات قوية متدفقة توحي بالانشراح وتعبر عن الحالة النفسية السعيدة كقول ناجي من قصيدة سمراء المحفل :

فلكي ومحـــرابي وقـــد ســـس فؤادي المتبـــتـــل
لمـــن الجمـــال الفـــخـــم يرفـــل في الغلائل والحلي
متألقاً فـــي خـــاطـــري متـــألقـــاً فـــي المـــحـــفـــل

* * *

طر حيث شئت فان دنو ت لنـاظـري فـتـمهـــل
واهـا لهذى الطلعة الســـمراء عنـــد المجتـلـــي
بغلائـل الاضـــواء وشـــتهـــا رقـــاق الانمـــل
وشـــت بشـاشتهـــا نضـــارة وجهـــك المتـهلـــل
فكأن طفـــل الفجـــر نـــام على وسادة جدول (٢)

(١) الديوان ص ٣٤٩ .

(٢) الديوان ، قصيدة سمراء المحفل ص ٢٥٠.

وهذه الابيات تحمل وفرة من معاني النشوة والفرح وتستجيب لمطلب نفسي معين يختلف عن مطلب الابيات السابقة كما رأينا .

وهذه الظاهرة — ظاهرة الملائمة بين الموسيقى وبين الافكار والموضوعات — تحقق تماماً ما قصد اليه السحرتي في كلامه عن الموسيقى وهو يقول: (ان غاية ما يقصد اليه هو اختيار القالب الموسيقي الذي يتفق مع الفكرة والموقف فكل فكرة أو موقف يستلزم قالباً خاصاً . ومضمون الموقف يتطلب ايقاعات خاصة متماثلة مع ما ينطوي عليه الموقف من حالات نفسية مختلفة — وانفعالات منوعة) . (١)

وموسيقى ناجي لاتتعامل مع الاذن وانما تتحدث مع النفس واقصد بهذا أنها موسيقى داخلية تتفاعل مع العواطف والمشاعر اكثر مما تقف عند حدود الصوت فرنينها بعيد واثارتها لاتقف عن حد الصدى وانما هي تنفذ الى اعماق الوجدان والعاطفة ولذلك كثرت في لغته الالفاظ المهموسة ذات التأثير الايحائي ومن ذلك قوله في قصيدة ظلام :

افرحي ما شئت ياروحي افرحي انشدي ما نقلته الطير عني
واغنمي نفح الصبا وانتقلي في الصبا الممراح من غصن لغصن
وعلى ايكلك ناغى كل من مر بالايك ونادى كل خدن
لن يحبوك كحبي لن ترى ضاحكاً مثلي ولا حزناً كحزني(٢)

واذا كانت مادة هذه الموسيقى هي الالفاظ الموحية المعبرة فانها عند ناجي لا تعرف المباشرة وانما ترسم وتوحي ويختفي وراءها عالم من الخواطر بعيد . ويكفي ان نشير الى بعض تعابيره الايحائية التي وردت في قصائده . فمن ذلك تعبيره عن الظلام بـ (العواء المخيف) و (هدير الامواج) (وعصف الرعب) و (الوحدة الخرساء) و (الفضاء الجهوم) . وقد عبر عن الخريف

(١) الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث ص ١٤٠.
(٢) الديوان ! ص ٧٠ .

ببعض الصور من مثل (جفاف الروض)و (الظلال القاتمة) و (الغيوم)و (موت الروض) .

وقد رصد محمود حامد شوكت مسألة التراكيب اللغوية في شعر ناجي وقال عما ورد منها في قصيدة (رسائل محترقة) (ويلاحظ في هذه القصيدة التراكيب اللغوية الجديدة ومذاقها الفني ودلالاتها النفسية والعاطفية مع اتساق في النغم وتالفه مواكباً تدفق العاطفة والحس الوجداني) . (١) وقد وردت القصيدة في مكان سابق . ومما يدل على ارتفاع اللغة الشعرية عند ناجي وما تؤدي اليه من نغم متميز هذه الملاءمة بينها وبين الموضوعات وانواع التجارب والتي لاتحتاج من القاريء الى ان يقف طويلا ليكتشف هذه العلاقة وهي لاتبدو علاقة مصطنعة وانما صميمة واصيلة ونظرة سريعة الى الالفاظ التي انتهت بها قافية قصيدة (ذنبي) التي ورد ذكرها سابقاً تقنع القاريء بما نقول ، وهذه الالفاظ هي : السماء ، الصفاء، الضياء، السناء ،الرواء، الشقاء، الرجاء، النداء ، وغيرها والقصيدة تعبير عن الحب الروحي الذي يربط الشاعر بحبيبته .

وتبقى مسألة اخرى لابد من الاشارة اليها لانها تتعلق بالموسيقى بل تشكل عنصراً مهماً منها ، تلك هي الاوزان . فعلى الرغم من ان ناجي لم يجدد فيها الا قليلا — كما سنذكر — الا انه هجر وحدة الوزن التي حافظ عليها شعراء التيار المحافظ ، فقد نظم بعض قصائده في اكثر من وزن واحد . لكن الاهم من هذا ما قيل من ابتداعه وزنا جديداً نظم به قصيدة (عاصفة الروح) التي افتتحها بقوله :

ايـن شـط الـرجـاء يـا عبـاب الـهـمـوم
لـيـلتـي انـواء ونـهـاري غـيـوم

(١) مقومات الشعر العربي ، ص ٢٥٤.

اعـولـي يـا جـراح اسمعـي الـديـان
لا يهـم الـريـاح زورق غـضـبـان

وهذا نظم كما يقول عنه الدارسون . من نصف وزن البحر المتدارك (١) واما بالنسبة للقافية فقد تحرر منها ناجي على الرغم من محافظته عليها في بعض قصائده . ولم يسلك فيها طريقه معينة فأحياناً ترد مزدوجة واحياناً تأتي رباعية وتأتي في بعض الاحيان متغيرة كل مجموعة من الابيات لكنها في كل حالة كانت منسجمة — الى حد بعيد — مع طبيعة القصيدة وموضوعها وهذه الظاهرة لها دلالة وهي انها تعبر عن شخصيته القلقة المتنقلة التي لم تثبت على حال ، وهي مهما كان القصد منها فتعبير عن ناحية من نواحي التجديد التي شكلت في شعره اصالة متميزة .

مراجع البحث

١ . ابراهيم المصري ، صوت الجيل ، القاهرة ، ١٩٣٤ .
٢. ابراهيم ناجي ، ديوان ناجي ، القاهرة ، ب. ت .
٣. أحمد المعتصم بالله ، ناجي شاعر الوجدان الذاتي ، القاهرة ، ب .ت.
٤. طه حسين ، حديث الاربعاء ، ج٣ القاهرة ، ١٩٦٥.
٥. عبدالعزيز الدسوقي ، جماعة ابولو واثرها في الشعر الحديث ، القاهرة ١٩٦٠ .
٦. ماهر حسن فهمي ، الحنين والغربة في الشعر الحديث ، القاهرة ، ١٩٧٠ .
٧. محمد عبدالمنعم خفاجي : دراسات في الادب العربي الحديث ومدارسه . القاهرة ، ب . ت .

(١) نعمات أحمد فؤاد : ناجي الشاعر ص ١٠٣ واحمد المعتصم بالله ص ٦٧ واحمد هيكل: الديوان ص ٣٧.

٨. محمد عبدالمنعم خفاجي : دراسات في الادب المقارن ، القاهرة .ب.ت
٩. محمد غنيمي هلال ، الادب المقارن ، القاهرة ، ١٩٧٠ .
١٠. محمد غنيمي هلال : الرومانتيكية ، القاهرة ، ١٩٧٣ .
١١. محمد غنيمي هلال : الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية ، القاهرة ، ط ٢ ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٠
١٢. محمد مندور : الادب ومذاهبه ، القاهرة ، ب . ت .
١٣ . محمد مندور : الشعر المصري بعد شوقي ، القاهرة ، ١٩٥٧ .
١٤. مصطفى عبد اللطيف السحرتي : الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث ، القاهرة ، ١٩٤٨ .
١٥. محمود حامد شوكت ورجاء محمد عيد : مقومات الشعر العربي الحديث والمعاصر ، القاهرة ، ب . ت .
١٦. نعمات احمد فؤاد ، ناجي الشاعر ، القاهرة ، ١٩٥٤ .
١٧. مجلة آداب الرافدين بحث (مظاهر الرومانتيكية في شعر محمود درويش) الموصل ، العدد : ٢ ، ١٩٧١ .
١٨. مجلة الاديب ، مقال لمصطفى عبداللطيف السحرتي بعنوان (غزل ناجي) ، ج ٧ ، ١٩٥٦ .
١٩. مجلة ابولو ، عدد مارس ، ١٩٣٣ .
٢٠. مجلة الهلال ، عدد يونيو ، ٩٧٧، مقال بعنوان (خمس قصائد مجهولة لشاعر الاطلال ابراهيم ناجي ، لحسن توفيق) .